المقاصد العقدية للآيات الكونية في القرآن الكريم

د٠ غويد بن شباب بن صالح الغامدي (*)

المقدمة:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد : فإن الله عز وجل أيد نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالدلائل البينات، والآيات والمعجزات، التي يستدل بها صاحب الفطرة السوي على صدقه وصحة نبوته صلى الله عليه وسلم، وكان أعظم هذه الدلائل والمعجزات القرآن الكريم، وما اشتمل عليه من المقاصد العقدية في الآيات الكونية.

أهمية الموضوع :

١- يستقي هذا الموضوع أهميته من أهمية الكتاب العزيز، حيث إنه يبين جانبًا عظيمًا من مقاصده، ويوضح معناه ودلالته .

٢ – كما تتجلى أهميته من جهة تعلقه بأشرف العلوم، وهو أصول الإيمان ومسائل الاعتقاد فهذا البحث يتعلق بإثبات المقاصد العقدية في آيات الله الكونية .

٣- التعرف على المراد بالآيات الكونية في القرآن الكريم، والحكم العقدية من ذكرها .

(*) أستاذ العقيدة المساعد بقسم الدراسات الإسلامية كلية الآداب – جامعة بيشة.

٤- أن علم المقاصد من أشرف العلوم وأجلها فهو ميدان المجتهدين، وفيه يجتمع العقل والنقل، ومن ذلك المقاصد العقدية في كتاب الله جل وعلا .

أسباب اختيار الموضوع :

١- الرغبة في نيل شرف العيش مع كتاب الله تعالى، ومحاولة النهل من معينه العذب .

٢- أن القرآن الكريم اشتمل على ذكر عدد كبير من الآيات الكونية في المخلوقات السماوية والأرضية وذكر صفاتها وأنواعها، وبيان المقاصد الكلية والحكم العقدية العامة من ورودها فأحببت أن أظهر ذلك، مع بيان فوائد هذا المنهج .

٣- محاولة إبراز بعض خصائص القرآن الكريم في تقرير العقائد، من خلال المقاصد .

٤- الحاجة الماسة إلى البحوث العقدية المؤصلة التي تنبثق من كتاب الله تعالى، في ضوء منهج السلف الصالح .

الدراسات السابقة :

من خلال البحث في فهارس المكتبات، ومحركات البحث الرقمية، وسؤال المختصين، لم أجد على حسب علمي من قام بجمع المقاصد العقدية للآيات الكونية في القرآن الكريم، ومنهج القرآن الكريم في ذلك، وفوائد هذا المنهج، وجاءت الدراسات الواردة في المقاصد العقدية في القرآن الكريم عن القصص أو الرسالات السماوية أو مباحث السمعيات ونحو ذلك مثل : المقاصد العقدية في القصص القرآني للدكتور الزايدي طويل، مقاصد الرسالات السماوية في القرآن للدكتور عبدالرحمن الصبري، المقاصد العقدية في مباحث السمعيات للدكتورة هيفاء حسن نعمه، وهناك دراسة بحثية عقدية تتعلق بالآيات الكونية بعنوان الآيات

الكونية دراسة عقدية للدكتور عبدالمجيد بن محمد وعلان، ألمحت إلى الدلالات العقدية للآيات الكونية، لكنها لم تستوعبها من ناحية مقاصدية ولم تُظهر فوائد المنهج القرآني في ذلك، وبقية الدراسات في هذا كانت غير متخصصة تتحدث عن الآيات الكونية من ناحية إعجازية علمية أو تفسيرية أو بلاغية .

منهج البحث :

لقد سرت في هذا البحث وفق المنهج الاستقرائي الوصفي و الاستنباطي والتحليلي .

خطة البحث :

قسمت هذا البحث إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين على النحو الآتي :

المقدمة : بينت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره والدراسات السابقة وقد مضت.

تمهيد : وفيه مطلبان.

المطلب الأول : تعريف المقاصد العقدية.

المطلب الثاني : المراد بالآيات الكونية.

المبحث الأول : المقاصد العقدية للآيات الكونية في القرآن الكريم، وفيه ثلاثة مطالب .

المطلب الأول : تقرير التوحيد، وفيه أربع مسائل :

المسألة الأولى : تقرير توحيد الربوبية .

المسألة الثانية : تقرير توحيد الألوهية .

المسألة الثالثة : تقرير توحيد الأسماء والصفات .

المسألة الرابعة : تقرير بطلان الشرك وفساده .

المطلب الثاني : تقرير النبوة وصدق الأنبياء عليهم السلام .

المطلب الثالث : تقرير وقوع اليوم الآخر وإثبات البعث .

المبحث الثاني : فوائد منهج القرآن الكريم في عرضه المقاصد العقدية للآيات الكونية .

ثم قائمة بالمصادر والمراجع .

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا البحث خالصًا لوجهه الكريم وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

**

تمهيـد

المطلب الأول : تعريف المقاصد العقدية:

المقاصد لغة : جمع (مقصد) وهو موضع القصد، أو (مقصد) وهو مصدر ميمي[١]، يُقال : قصد يقصد قصدًا ومقصدًا، والقصد يأتي لمعانٍ عدة في اللغة، منها[٢] : الأَمُّ والاعتمادُ والتوجُّه، ومنه قولهم : (قَصَدَ فُلانًا) إذا أَمَّهُ وتوجَّهَ إليه، واستقامة الطريق، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ [النحل : ٩] أي : السبيل المستقيم القاصد الذي لا اعوجاج فيه [٣]، والاعتدال والتوسط، ومنه قول الله تعالى:﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ [فاطر: ٣٢]، والاكْتِناز، وهو الاجتماع والامتلاء، يقال: الناقة القصد، أي: المكتنزة الممتلئة لحما، والكسر في أي وجه، كأن يقال: قصدتُ العود قصدًا إذا كسرته، والقُرب يقال : بيننا وبين الماء ليلة قاصدة، أي هينةُ السير، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ [التوبة : ٤٢] .

المقاصد اصطلاحاً : اهتم العلماء المتقدمون بمقاصد الشريعة الإسلامية وغاياتها وعللها، وكذلك اعتنوا بمقاصد القرآن الكريم، ومن خلال مراجعة عدد من أقوالهم، ووجدت أن لفظة المقاصد ترجع إلى عدة معان مترادفة، منها :

---

(١) المصدر الميمي : هو ما دلّ على الحدث وبُدئ بميم زائدة لغير مفاعله، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، الأشموني (٢/ ٢٠٤)

(٢) مادة : (قصد) في، معجم مقاييس اللغة، ابن فارس (٥ / ٩٥) .

(٣) جامع البيان، الطبري (١٧ / ١٧٤)، أضواء البيان، الشنقيطي (٢ / ٣٣٥) .

أ- المصالح المجتلبة والمفاسد المبتعدة، كما ذكر ذلك الغزالي بقوله : (المصالح عبارة في الأصل عن جلب منفعة أو دفع مضرة)[١]، ثم أشار إلى أن المصالح هي المقاصد بقوله :

(إن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم)[٢].

ب - المقصود الأصلي من إثبات الأحكام ونفيها، وهو تعريف الآمدي حيث يقول : (أن المقصود الأصلي من إثبات الأحكام ونفيها إنما هو الحكم والمقاصد)[٣].

ج - المصالح التي شرعت لأجلها الأعمال الشرعية، وهو تعريف الإمام الشاطبي من خلال بيانه لمقاصد الشريعة بقوله : (إن الأعمال الشرعية ليست مقصودة لأنفسها، وإنما قصد بها أمور أخر هي معانيها : وهي المصالح التي شرعت لأجلها) [٤].

د- وعرفها الطاهر بن عاشور بقوله : (هي الأعمال والتصرفات المقصودة لذاتها، التي تسعى النفوس إلى تحصيلها بمساع شتى، أو تُحمل على السعي إليها امتثالا)[٥].

ومن خلال هذه التعاريف، نستطيع أن نعرف المقاصد اصطلاحا : بأنها الأعمال المقصودة لذاتها، أو غايتها، أو مصالحها، أو معانيها، أو القيم التي

---

(١) المستصفى، الغزالي ص : (١٧٤) .

(٢) المصدر السابق، ص : (١٧٥) .

(٣) الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي (٣ / ٢٣٢) .

(٤) الموافقات في أصول الفقه، الشاطبي (٢ / ٣٨٥) .

(٥) مقاصد الشريعة الإسلامية، ابن عاشور، ص : (٢٥٣) .

تكمن وراءها، أو هي القيم العليا والغايات المحمودة التي يُرتجى الحصول عليها عند تحقق أسبابها .

معنى العقيدة لغة واصطلاحًا، والمراد بالعقيدة الإسلامية :

العقيدة لغة :

مأخوذة من العقد، وهو الجمع بين أطراف الشيء، مع الشد والتوثيق، والأصلُ استعماله في الأشياء المادية كالحبل والبناء، فيقال : عقد الحبل، وعقد البناء، ثم استُعمل هذا اللفظ في الأشياء المعنوَّيةِ حين التوثُّق منها فيقالُ : عقدُ اليمين وعقدُ العهد وعقدُ النكاح(١).

العقيدة اصطلاحًا :

العقيدة في الاصطلاح : هي الحكم الجازم الذي يعقد الإنسان قلبه عليه بغير تردد أو شك فيخرج منه الوهم والشك والظن، يقول ابن تيمية رحمه الله : (إن العقائد هي الأمور التي تصدق بها النفوس وتطمئن إليها القلوب وتكون يقيناً عند أصحابها لا يمازجها ريب ولا يخالطها شك)(٢).

والعقيدة الإسلامية :

يُرادُ بها ما يُرادُ بالإيمان الوارد في حديث جبريل (٣)، فهي الجانبُ الغيبيُ من الدين والمتعلق بالقلب، والذي يقومُ على أركانِ الإيمان الستة : الإيمانُ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، (كما أنها العلم

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس (٤ / ٨٦)، مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني (٥٧٦).

(٢) مجموع الرسائل والمسائل، ابن تيمية (٢٩)

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، حديث رقم : (٣٦) .

بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية، أي : العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسبة من أدلتها اليقينية)[١].

مقاصد العقيدة : لم أعثر على تعريفٍ حَدَّيٍّ لها عند المتقدمين، ولكن وجدتُ في كتبهم عبارات موضحة لمعنى المقاصد، منها :

قول الغزالي رحمه الله : (أما المقصود فينقسم : إلى ديني، وإلى دنيوي، وكل واحد ينقسم إلى تحصيل، وإبقاء، وقد يُعبر عن التحصيل بجلب المنفعة، وقد يُعبَّر عن الإبقاء بدفع المضرَّة، فرعاية المقاصد : عبارة عن حاويةٍ للإبقاءِ ودفُع القواطع، وللتحصيل على سبيل الابتداء)[٢] .

وقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (وإنما يعرف ذلك من كان خبيراً بأسرار الشرع ومقاصده، وما اشتملت عليه شريعة الإسلام من المحاسن التي تفوق التعداد وما تضمنته من مصالح العباد في المعاش والمعاد، وما فيها من الحكمة البالغة، والنعمة السابغة والعدل التام)[٣]، وقد اعتبر رحمه الله معرفة حكمة الشريعة ومقاصدها ومحاسنها (خاصة الفقه في الدين) [٤] .

وقول الشاطبي رحمه الله : (إن الشارع قد قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدنيوية)[٥] .

---

(١) لوامع الأنوار البهية، السفاريني (١ / ٥)

(٢) شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل، الغزالي (١٥٩)

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٨ / ١٧٩) .

(٤) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١١ / ٣٥٤) .

(٥) الموافقات، الشاطبي (٢ / ٦٢) .

وأما المتأخرون فقد عبَّروا عن تعريف المقاصد بعبارات متقاربة[١]، لعل من أمثلها ما يأتي : هي : المعاني والحكم ونحوها التي راعاها الشارع في التشريع عُمومًا وخصوصًا من أجل تحقيق مصالح العباد[٢] .

أو هي : الحكم التي أرادها الله من أحكامه، لتحقيق العبودية لله، وإصلاح العباد في المعاش والمعاد [٣] .

ومن خلال كلام أهل العلم السابق يمكننا تعريف المقاصد العقدية بمعناها العام بأنها : الأهداف والغايات التي وُضعت لها العقائد الدينية، وبمعناه الخاص " مقاصد العقيدة الإسلامية " : بأنها المعاني والحكم والغايات التي هيَّأها الله عز وجل لعباده في أُسس العقيدة أركان الإيمان الستة كافة متدرجة من معارف ذهنية، إلى صفات وجدانية، وسلوكيات علمية وعملية بما يعود على المسلم والمجتمع بالصلاح الديني والدنيوي .

وقد قامت الأدلة القاطعة بالاستقراء على ابتناء الشريعة الربانية على مقاصد معقولة مفهومة شريفة منيفة، وبهذا صرح ثلة من العلماء :

فقال العز بن عبدالسلام رحمه الله : (ومن تتبع مقاصد الشرع في جلب المصالح ودرء المفاسد، حصل له من مجموع ذلك اعتقاد أو عرفان بأن هذه

---

(١) انظر : مقاصد الشريعة، ابن عاشور (٢٥١)، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، يوسف العالم (٧٩)، نظرية المقاصد عند الامام الشاطبي، د.حسين حامد حسان (٨)، علم مقاصد الشريعة، الخادمي (١٧)، مقاصد الشريعة الاسلامية، د.زياد احميدان (١٦) .

(٢) تعريف د. محمد اليوبي في كتابه : (مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية) (٣٨) .

(٣) تعريف د. يوسف البدوي – استخلصه من كلام ابن تيمية – في كتابه : (مقاصد الشريعة عند ابن تيمية) (٦٤) .

المصلحة لا يجوز إهمالها، وأن هذه المفسدة لا يجوز قربانها، ثم قال : ولو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسنة، لعلمنا أن الله أمر بكل خير دقه وجله، وزجر عن كل شر دقه وجله، فإن الخير يعبر به عن جلب المصالح ودرء المفاسد، والشر يعبر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح) [١] .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله : (كيف والقرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مملوآن من تعليل الأحكام بالحكم والمصالح، وتعليل الخلق بهما، والتنبيه على وجوه الحكم التي لأجلها شرع تلك الأحكام، ولأجلها خلق تلك الأعيان، ولو كان هذا في القرآن والسنة نحو مائة موضع أو مائتين لسقناها، ولكن يزيد على ألف موضع بطرق متنوعة) [٢].

وقال الشاطبي رحمه الله : (انا استقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد)، ثم قال بعد عرضه نصوصًا دالة على التعليل : (وإذا دل الاستقراءُ على هذا، وكان في مثل هذه القضية مفيدًا للعلم، فنحن نقطع بأن الأمر مستمرٌ في جميع تفاصيل الشريعة)[٣].

المطلب الثاني : المراد بالآيات الكونية :

١- تعريف الآيات في اللغة وإطلاقاتها في القرآن الكريم :

الآيات مفرد الآية، وأصلها من أيي بياءين، فقلبت عينها ألفًا، فأصبحت آية، وقيل إنها من أوي، من قولها أوى إليه، ويرى الراغب الأصفهاني رحمه الله : (أن

(١) قواعد الأحكام في إصلاح الأنام، العز بن عبدالسلام (٢ / ٣١٤ – ٣١٥) .
(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم (٢ / ٩١٣)، شفاء العليل ، ابن القيم (٤٠٠) .
(٣) الموافقات، الشاطبي (٢ / ١٢ – ١٣) .

الصحيح أنها مشتقة من التأني الذي هو التثبيت والإقامة على الشيء)[١]، وتطلق الآية في اللغة على: العلامة، والجماعة، والعجب، والدليل، والعبرة، والإمارة[٢] .

وتطلق في القرآن الكريم على معنيين:

الأول : على الآيات الشرعية الدينية، كآيات القرآن العظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [يوسف : ١]، الثاني : على الآية الكونية القدرية [٣]، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩].

والآية الكونية القدرية هي بمعنى الآية اللغوية التي هي العلامة، لأن الآيات الكونية علامات قاطعة، على أن خالقها هو الرب المعبود وحده، وأما الآية الشرعية الدينية، فقال بعض العلماء : إنها أيضا من الآية التي هي العلامة، لأن آيات هذا القرآن العظيم، علامات على صدق من جاء بها، لما تضمنته من برهان الإعجاز، أو لأن فيها علامات يعرف بها مبدأ الآيات ومنتهاها، وقال

---

(١) المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني (١١١)، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي (٢ / ٦٣)، لسان العرب، ابن منظور (١ / ١٨٥ – ١٨٧)، البرهان، الزركشي (١ / ٢٦٦) .

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس (١ / ١٦٨)، تاج العروس، الزبيدي (٣٧ / ١٢٢)، لسان العرب، ابن منظور (١٤ / ٦١)، وما بعدها، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي (١٢٦١) .

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١١ / ٣٢٢ – ٣٢٣)، وأضواء البيان، الشنقيطي (٧ / ٣٣٩) .

بعض العلماء إنها من الآية بمعنى الجماعة، لتضمنها جملة وجماعة من كلمات القرآن وحروفه[١]، وذكر بعضهم[٢] إطلاقًا ثالثًا للآية، وهو على المعجزات التي يؤتيها الله رسله لإثبات صدق بلاغهم عن الله تعالى، مثل انشقاق البحر لموسى عليه السلام، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى عليه السلام، وهذا الإطلاق داخل في الثاني، لأن المعجزات تُعتبر آيات كونية قدرية .

٢- تعريف الكون :

الكون في اللغة : الكاف والنون أصل يدل على الإخبار عن حدوث شئ، إما في زمان ماض، أو زمان راهن، يقولون : كان الشئ يكون كوناً إذا وقع وحضر، والكون : الحدث وقد كان كونا وكينونة، والكائنة الحادثة، والتكون التحرك، تقول العرب لمن تشنؤه : لا كان ولا تكون، لا كان : لا خلق، ولا تكون : لا تحرك، أي مات، والكائنة : الأمر الحادث، وكَوَّنهَ فَتَكَوَّنَ : أحدثه فحدث، وكون الشئ : أحدثه، والله مكون الأشياء يخرجها من العدم إلى الوجود، والكون : واحد الأكوان [٣].

وكون الشئ : ركبه بالتأليف بين أجزائه، والكون الوجود المطلق العام، واسم لما يحدث دفعة كحدوث النور عقب الظلام مباشرة، وإن كان الحدث بالتدرج فهو الحركة، والكونان : الدنيا والآخرة [٤] .

---

(١) انظر : مناهل العرفان، الزرقاني (١ / ٣٣١ – ٣٣٢)، ودراسات في علوم القرآن الكريم، د. فهد الرومي (١٢٦)، ومفاتيح التفسير، د. أحمد الخطيب (١ / ٢٥) .

(٢) انظر : القرآن والكون، د. محمد عبدالله الشرقاوي (٣٣)، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د.زاهر الشهري (٢٤) .

(٣) انظر : معجم مقاييس اللغة، ابن فارس (٥ / ١٤٨)، لسان العرب، ابن منظور (٥ / ٣٩٥٩ – ٣٩٦٣)، تهذيب اللغة، الأزهري (١٠ / ٣٧٥ – ٣٧٦) .

(٤) المعجم الوسيط، نخبة من اللغويين (٢ / ٨١٢)، المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية (٥٤٥) .

ويستعمل مصطلح الكون في الفيزياء، وفي الفلك ليشير إلى كل شئ موجود، من أصغر الذرات إلى أكبر الأجرام الفلكية بعدا [١] .

ويطلق مصطلح الكون اليوم على هذا الفضاء الواسع وما به من أجرام، كالسماوات والأرض وما فيهن وما بين ذلك من كل متحرك وساكن مما علمه الإنسان وما جهله[٢] .

المراد بالآيات الكونية :

يتبين مما سبق أن المراد بالآيات الكونية : أنها المنسوبة إلى الكون الذي هو الخلق الذي كونه الله تعالى فكان، كالسماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من سائر المخلوقات [٣]، فكل المخلوقات ذواتها، وصفاتها، وأحوالها من الآيات الكونية [٤] ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ ﴾ [فصلت: ٣٧]، وهذه الآيات الكونية هي إحدى مناطات الاستدلال العقلي على وجود الله ، وعلى أن خالقها هو الرب المعبود وحده، وعلى ما له من حكمة، ورحمة، وقدرة [٥].

**

(١) الموسوعة العربية العالمية، مجموعة من الباحثين (٢٠ / ٢٨٥) .
(٢) انظر : الموسوعة الفلكية، تسمرمان (٣٢٩، ٤٠٤)، الآيات الكونية دراسة عقدية، د.عبدالمجيد الوعلان (٢٣) .
(٣) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري (١ / ١٤١) .
(٤) التفسير الثمين، ابن عثيمين (٢ / ٣٦٠) .
(٥) النبوات، ابن تيمية (٢ / ٦٦١ – ٧٧٧)، أضواء البيان، الشنقيطي (٧ / ٣٣٩) .

المبحث الأول

المقاصد العقدية للآيات الكونية في القرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب هداية، أنزله الله عز وجل منهج حياة لإسعاد البشرية وإصلاح جميع شؤونهم وأحوالهم، (فهو العصمة الواقية، والنعمة الباقية، والحجة البالغة، والدلالة الدامغة، وهو شفاء الصدور، والحكم العدل عند مشتبهات الأمور، وهو الكلام الجزل والفصل الذي ليس بالهزل، شهاب لا يخبو ضياؤه وسناؤه، وبحر لا يدرك غوره بهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، وتظافر إيجازه وإعجازه)[1]، وهو عند ذكره لآيات الله تعالى الكونية في الآفاق وفي الأنفس، لا يذكرها لمجرد الذكر، أو لزيادة المعارف العلمية بالكون وتفاصيله، وإنما يذكرها لحكم عظيمة ومقاصد عالية، ومطالب شريفة، فهذه الآيات الكونية سيقت في سبيل الاستدلال بها على قضايا كبرى كالألوهية والنبوات والبعث والإيمان بالملائكة والكتب واليوم الآخر، وهذا النوع كثير في القرآن الكريم ' قال الإمام ابن القيم رحمه الله : (وهذه طريقة القرآن في إرشاده الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها على إثبات الخالق وعلى التوحيد والمعاد والنبوات، فمرة يخبر أنه لم يخلق خلقه باطلاً ولا عبثاً، ومرة يخبر أنه خلقهم بالحق، ومرة يخبرهم وينبههم على وجوه الاعتبار والاستدلال بأصناف بها على صدق ما أخبرت رسله حتى يبين لهم أن الرسل إنما جاؤوهم بما يشاهدون أدلة صدقه، وبما لو تأملوه لرأوه مركوزاً في فطرهم مستقراً في عقولهم، وأن ما يشاهدونه من مخلوقاته شاهد بما أخبرت به رسله من أسمائه وصفاته وتوحيده ولقائه ووجود ملائكته، وهذا باب عظيم من أبواب الإيمان إنما يفتحه الله

---

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (١ / ٣-٤) .

على من سبقت له منه سابقة السعادة وهذا أشرف علم يناله العبد في هذه الدار)[١]، ولقد امتدح الله عز وجل المتفكرين في مخلوقاته، المستدلين بها على عظمته وإلاهيته، فقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله : (وأما قوله : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ، فإنه يعني بذلك أنهم يعتبرون بصنعة صانع ذلك، فيعلمون أنه لا يصنع ذلك إلا مَن ليس كمثله شيء، ومن هو مالك كل شيء ورازقه، وخالق كل شيء ومدبره، ومن هو على كل شيء قدير، وبيده الإغناء والإفقار، والإعزاز والإذلال، والإحياء والإماتة، والشقاء والسعادة...

وقوله : ﴿ مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا ﴾ يقول : لم تخلق هذا الخلق عبثًا ولا لعبًا، ولم تخلقه إلا لأمر عظيم من ثواب وعقاب ومحاسبة ومجازاة)[٢]، وذمَّ الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته، وشرعه وقدره وآياته، فقال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥ – ١٠٦][٣]، والقرآن الكريم اشتمل على ذكر عدد كبير من الآيات الكونية في المخلوقات

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم (٤ / ١٦٢ – ١٦٣) .

(٢) جامع البيان، الطبري (٦ / ٣١١) .

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢ / ١٨)، وانظر : الفوائد، ابن القيم (٤٠)، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. زاهر الشهري (٢٦) .

السماوية والأرضية، وذكر صفاتها، وأنواعها، وبيان المقاصد الكلية، والحكم العقدية العامة من وردوها والتي يمكن إجمالها في ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول : تقرير التوحيد .

المقصد الثاني : تقرير النبوة وصدق الأنبياء عليهم السلام .

المقصد الثالث : تقرير وقوع اليوم الآخر واثبات البعث .

وإليك تفصيل ذلك من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول : تقرير التوحيد :

تعريف التوحيد وأنواعه :

التوحيد في اللغة : هو تفعيل وحَّد يقال : (وحد واحده كما يقال ثناه وثلثة)[1]، وحده توحيدا أي جعله واحدا[2]، والتوحيد : الإيمان بالله وحده لا شريك له[3].

أما التوحيد شرعًا فهو : إفراد الله بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات[4]، فلا معبود بحق سواه، قال تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد : ١٩]، ولا شريك له في الخلق والأمر، قال سبحانه : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[الأعراف : ٥٤]، و لا مثيل له ولا نظير،

(١) الصحاح، الجوهري (٢ / ٥٤٨) .

(٢) انظر : الصحاح، الجوهري (٢ / ٥٤٧)، لسان العرب، ابن منظور، مادة : وحده، (١٥ / ٢٣٠) .

(٣) فتح المجيد، عبد الرحمن بن عبدالوهاب (٥٧) .

(٤) شفاء العليل، ابن القيم (٣٦٦)، القول المفيد، ابن عثيمين (١ / ١١) .

بل له سبحانه وتعالى الكمال المطلق المنزه عن جميع النقائص قال عز من قائل : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١].

وهذا التوحيد : ثلاثة أقسام كما دلت على ذلك نصوص الكتاب الكريم وصحيح السنة المطهرة، قال الإمام العكبري رحمه الله : (أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء :

أحدها : أن يعتقد العبد ربانيته ليكون بذلك مباينًا لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعاً.

والثاني : أن يعتقد وحدانيته ليكون بذلك مباينًا لمذهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

والثالث : أن يعتقده موصوفًا بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفًا بها من العلم والقدرة والحكمة، وسائر ما وصف به نفسه في كتابه إذ قد علمنا أن كثيرًا ممن يقر به ويوحده بالقول قد يلحد في صفاته فيكون إلحاده في صفاته قادحًا في توحيده، ولأننا نجد أن الله تعالى قد خاطب عباده بدعائهم إلى اعتقاد كل واحدة من هذه الثلاث والإيمان بها) [(١)]، والآيات الكونية من أهم مقاصدها وأجلها، تقرير التوحيد بأنواعه الثلاثة ويتضح ذلك من خلال المسائل الآتية :

المسألة الأولى : تقرير توحيد الربوبية :

تعريف توحيد البربوبية :

الربوبية : هي الإقرار الجازم بأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه، وخالقه ومدبره، والمتصرف فيه، لم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليٌ من الذل،

(١) الإبانة، العكبري (٣ / ١٢)، القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد، البدر (٢٩ –٣٠) .

ولا راد لأمره ولا معقب لحكمه، ولا مضاد له، ولا منازع في شيء من معاني ربوبيته، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد : ١٦][1]، وقد عرفه الشيخ ابن عثيمين رحمه الله فقال : فأما توحيد الربوبية : فهو إفراد الله تعالى بالخلق، والملك، والتدبير، ومن أدلته قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤][2].

طرائق الآيات الكونية في تقرير توحيد الربوبية :

أن هذه الآيات الكونية لابد لها من خالق أوجدها، إذ لا يمكن أن تُوجد نفسها بنفسها، ولا يمكن أن تُوجد هكذا صدفة بدون موجد، وذلك لافتقار المخلوق إلى الخالق، واحتياج المحدَث إلى المحدِث[3]، ولذلك يرشد الله تعالى إلى الاعتبار بما في الآفاق والأنفس من الآيات المشاهدة كخلق السموات والأرض وما فيهما، وأن

(١) القول السديد، السعدي (١٠) .

(٢) تقريب التدمرية، ابن عثيمين (١١٠) .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٦ / ٤٤٥)، شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز (١ / ٧٦)، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. زاهر الشهري (٢٧ – ٢٨)، لوامع الأنوار، السفاريني (١ / ٤٤)، الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، د. سعود العريفي، (٢٠٩ – ٢٢٦) .

كل ذلك دال على حدوثها، وعلى وجود خالقها وحكمته[١]، فالاستدل على الخالق بمخلوقاته في غاية الحُسن والاستقامة، وهو من أهم المقاصد العقدية للآيات الكونية في القرآن الكريم، كما أنه طريقة عقلية صحيحة، وشرعية دل القُرآن عليها وهدى النَّاس إليها وبيّنها وأرشد إليها[٢]، ولقد تنوعت طرائق الآيات الكونية في القرآن الكريم لتقرير توحيد الربوبية من عدة نواحٍ يمكن إجمالها فيما يأتي :

أولاً : الاستدلال بحدوث الإنسان على الخالق، كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٢٥]، فخلق الإنسان من أقرب الأدلة إلى النفس، وأبينها دلالة على وجود الخالق، وعلى كثير من صفات كماله؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (خلق الإنسان .. من أعظم الآيات، فكل أحد يعلم أنه هو لم يحدث نفسه، ولا أبواه، ولا أحد من البشر أحدثه، ويعلم أنه لابد له من محدث، فكل أحد يعلم أن له خالقًا خلقه، ويعلم أنه موجود حي عليم قدير سميع بصير، ومن جعل غيره حيا كان أولى أن يكون حيا، ومن جعل غيره عليما كان أولى أن يكون عليما، ومن جعل غيره قادرا كان أولى أن يكون قادرا، ويعلم أيضًا أن فيه من الإحكام ما دل على علم الفاعل، ومن الاختصاص ما دل على إرادة الفاعل، وأن الإحداث نفسه لا يكون إلا بقدرة المحدث، فعلمه

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٣ / ٣٣١ – ٣٣٢)، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣ / ٤١٩)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (١٨ / ٦٤، ٢٠ / ٢٢٣– ٢٣١) .

(٢) النبوات، ابن تيمية (٤٨)، ودرء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية (٧ / ٢١٩ – ٢٢٤)، مباحث في الربوبية والقدر، د.عيسى السعدي (٣٦ – ٤٣) .

بنفسه المعينة المشخصة الجزئية يفيده العلم بهذه المطالب الإلهية وغيرها ؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾)[1].

ثانياً : الاستدلال بحدوث المخلوقات على الخالق، وهذه الصورة لها أدلة كثيرة منها :

١- قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم : ٨]، فالحق مقارن للخلق، إيجاداً واشتمالاً وصيرورة، ومن أعظم ما اشتمل عليه من الحق الدلالة على وجود الخالق وتوحيده وصفات كماله[2]، قال الإمام ابن القيم رحمه الله : (خلق السموات والأرض من أعظم الأدلة على وجود فاطرهما وكمال قدرته وعلمه وحكمته وانفراده بالربوبية والوحدانية وَالله سُبْحَانَهُ إِنَّمَا يَدْعُو عباده إلى النّظر والفكر فِي مخلوقاته الْعِظَام لظُهُور أثر الدّلَالَة فِيهَا وبديع عجائب الصَّنْعَة وَالْحكمَة فِيهَا واتساع مجَال الْفِكر وَالنَّظَر فِي أرجائها وَألا ففِي كل شَيْء لَهُ آيَة تدل على أَنه وَاحِد)[3].

---

(١) درء التعارض، ابن تيمية (٣ / ١٢٢، ١١٢٣)، كتاب النبوات ، ابن تيمية (١ / ٢٩٢ – ٢٩٣)، كتاب الروح، ابن القيم (٢ / ٤٩٢ – ٤٩٣)، مفتاح دار السعادة، ابن القيم (٢ / ٥٣٨ – ٥٣٩)، مختصر الصواعق، ابن القيم (١ / ٢٠٤– ٢٠٥– يسر العقيدة، المعلمي (٥٠ – ٥١) .

(٢) الجامع لاحكام القران، القرطبي (١٤ / ٨)، بدائع الفوائد، ابن القيم (٤ / ١٦١ – ١٦٧) .

(٣) مفتاح دار السعادة، ابن القيم (٣ / ١٣٨٥).، كتاب الروح، ابن القيم (٢ / ٤٩٢)، تيسير الكريم المنان، السعدي (٧ / ١٤٨– ١٤٩) .

٢- قوله تعالى :﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧ – ٢٠]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : (نبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه ، وأنه الرب العظيم المالك المتصرف، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه)[(١)].

ثالثاً : لفت الأنظار إلى ما في الكون من تناغم بين الأسباب ومسبباتها وبين الكائنات مع بعضها بعض، وانتظامها وتناسقها، فالكون بمظاهره وخيراته موافق لوجود الإنسان، ومهيأ لحياته وبقائه على أكمل الوجوه، وهذه الموافقة تدل بضرورة العقل على وجود الخالق وكماله، لاستحالة أن تحصل هذه العناية التامة صدفة واتفاقا' قال تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر: ١٩ – ٢٢].

رابعاً : تنوع المخلوقات وتغيرها من أظهر الأدلة على وجود الخالق واختياره، إذ لو كانت على نمط واحد لوجد الملحد مقالا، وقال : هذا مقتضى الطبيعة، ولو

(١) تفسير القران العظيم، ابن كثير (٧ / ٥٥١) .

كان للعالم فاعل مختار لتنوعت أفعاله ومفعولاته ولفعل الشيء وخلافه[1]، والنصوص التي تضمنت هذا كثيرة، كقوله تعالى : ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤]؛، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : (من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه) [2].

خامساً : فقر المخلوقات وعدم استقلالها بتدبير شؤونها ومعرفة مصالحها فكل مخلوق لابد له من شريك هو له كالشرط، ومعارض هو له كالمانع، ولهذا لا يستقل مخلوق بفعل، قال تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، أي تعلمون الاستقلال بالفعل من خصائص الخالق، وأن المخلوقات لابد فيها من اشتراك في الفعل، فالمشاركة واجبة للمخلوق كما أن الوحدانية واجبة للخالق، والوحدانية مستلزمة للغني، والمشاركة مستلزمة للفقر، والفقر آية حدوث المخلوقات، وبرهان وجود الخالق، لأن الفقير لابد له من غني بنفسه وإلا لم يوجد ما هو فقير بحال[3] .

---

(١) انظر : طريق الهجرتين، ابن القيم (١٢١)، شفاء العليل، ابن القيم (٣٨٤)، إيثار الحق على الخلق، ابن الوزير (٤٩ – ٥١ – ٥٣)، مباحث الربوبية والقدر، د.عيسى السعدي (٣٩-٤٠).

(٢) تفسير القران العظيم، ابن كثير (١ / ٣٠٠ – ٣٠١) .

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٢٠ / ١٨١ – ١٨٤) .

سادساً : الهداية العامة لجميع المخلوقات إلى منافعها ومصالحها، فهداية كل مخلوق إلى مصالح معاشه، وسبل بقائه وقيامه وحفظه آية كبرى على وجود الخالق وكماله، قال تعالى : چ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٤٩ – ٥٠]، قال الامام ابن القيم رحمه الله : (الهداية العامة قرينة الخلق في الدلالة على الرب تبارك وتعالى وأسمائه وصفاته وتوحيده، والمعنى أعطى كل شيء خلقه المختص به ثم هداه لما خلق له، فهذا لما يصلحه في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه، فالخلق إعطاء الوجود العيني الخارجي، والهدي إعطاء الوجود العلمي الذهني، فلا خالق سواه سبحانه ولا هادي غيره، وهذا الخلق وهذه الهداية من آيات ربوبيته ووحدانيته)[١] .

سابعاً : إتقان الخلق وتسخيره للسير عليه وفق نظام متقن دليل على وجود الخالق، وعظيم قدرته وسلطانه، وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له سبحانه[٢]، كما قال تعالى :﴿ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [النمل : ٨٨] .

فهذه النواحي وغيرها، تلفت نظر الإنسان لما في هذا الكون من التنظيم الدقيق، والتناسق بين أجزاء الكون، في أقصى غايات الدقة والإتقان، لتدل دلالة قاطعة على العناية التامة بهذا الكون وما فيه، وأن إلهًا واحدًا هو الذي نظم كل ما فيه أحسن تنظيم، إنه لا يوجد أي شيء في الكون إلا في محله المناسب،

---

(١) شفاء العليل، ابن القيم (١١٩– ١٣٧ – ١٤٠) .

(٢) تفسير القران العظيم، ابن كثير (٢ / ٤٩٩ – ٥٦٤ – ٥٦٥ – ٣ / ٢٣٣ – ٤٥٢ – ٥٥١) .

وبالقدر المناسب، فكل ما فيه في غاية الحكمة والعناية والإتقان، والناظر لهذا الإتقان العجيب، والتنظيم المدهش في كل شيء في الأرض وفي السماء وما بينهما، بحيث إن أي تغيير فيه يؤدي إلى الخلل والفساد، لا يسعه إلا أن يؤمن بوحدانية الله تعالى وبطلان عبادة من سواه .

المسألة الثانية : تقرير توحيد الألوهية :

تعريف توحيد الألوهية :

توحيد الألوهية هو توحيد الله بأفعال العباد، أو هو : إفراد الله عز وجل بالعبادة، وهذا التوحيد هو الذي خلق الله عز وجل الخلق من أجله، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦]، قال ابن عباس رضي الله عنهما : (إلا ليوحدون)[١]، وهذا النوع من التوحيد هو معنى : لا إله إلا الله، إذ معناها لا معبود بحق إلا الله عز وجل، وهو توحيد العبادة الذي يعني إخلاص العبادة لله عز وجل وحده لا شريك له، والعبادة في اللغة : الطاعة مع الخضوع، ومنه طريق معبد، إذا كان مذللا بكثرة الوطء [٢]، والعبادة في الشرع : هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة [٣]، ويشترط لقبول العبادة شرطان : قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (ولا بد في عبادته من أصلين : أحدهما إخلاص الدين لله، والثاني : موافقة أمر الله الذي بعث به رسله)[٤].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز (٧٧)، أصول مسائل العقيدة عند السلف وعند المبتدعة، الخلف (١ / ٨٢-٨٣) .

(٢) لسان العرب، ابن منظور (٣ / ٢٧٣) .

(٣) العبودية، ابن تيمية (٤٤) .

(٤) التدمرية، ابن تيمية (٢٣٣) .

طرائق الآيات الكونية في تقرير توحيد الألوهية :

ما تقرب متقرب إلى الله سبحانه وتعالى بأفضل من أن يوحده، ويعظمه ويفرده بالعبادة والذل والخضوع والانقياد، ولقد كان من أبرز مقاصد الآيات الكونية في القرآن الكريم بيان هذا النوع من التوحيد وتقريره بطرق شتى ووسائل متعددة منها مايأتي :

أولاً : أن الله تعالى أمر بالنظر في آياته الكونية وبالتفكير فيها، والاستدلال بها على استحقاقه تعالى للعبادة، وعدم إشراك أحد من المخلوقين معه فيها، فالذي خلق وأوجد وصور، هو الذي يستحق أن يوحد ويعبد ويطاع، فقال تعالى :﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥٩ – ٦١]، وقال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]، قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله : (وفي أنفسكم أيها الناس آيات وعبر تدلكم على وحدانية صانعكم وأنه لا إله لكم ولا رب سواه إذ كان لا شيء يقدر على أن يخلق مثل خلقه إياكم ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾، يقول : أفلا تنظرون في ذلك فتتفكروا فيه ، فتعلموا حقيقة وحدانية خالقكم)[1]، وأنه المستحق للعبادة والتعظيم وحده لا شريك له .

(١) جامع البيان، الطبري (٢١ / ٥٢٠) .

ثانياً : بيان الحكمة من خلق الآيات الكونية، وأن ذلك بالحق، وأنها لم تخلق عبثاً، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان : ٣٨ -٣٩]، فأخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض بالحق، أي بالعدل والقسط، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً [١]، فالله جل وعلا ما خلق السماوات والأرض عبثاً، ولا لعباً من غير فائدة، بل خلقها بالحق وللحق الذي لا يصلح التدبير إلا به، ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كله، والحمد كله، والعزة كلها، الصادق في قوله، الصادقة رسله، فيما تخبر به عنه، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما وعظمتهما، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي المحسن بإحسانه والمسئ بإساءته[٢] .

ثالثاً : أن الله عز وجل يذكر ما يدل على عظمته وقدرته في الخلق والتصرف إذ بثبوت هذا الأمر تثبيت الوحدانية لله جل وعلا ويُفرد بالعبادة وينتفي عنه الشرك، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ [البروج : ١-٣] يقول الطاهر بن عاشور : (في افتتاح السورة بهذا القسم تشويق إلى ما يرد بعده، وإشعار بأهمية المقسم عليه، وهو مع ذلك يلفت ألباب السامعين إلى الأمور المقسم بها، لأن بعضها من دلائل عظيم القدرة الإلهية المقتضية تفرده تعالى بالإلهية وإبطال الشرك)[٣].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٤ / ١٥٦) .

(٢) انظر : تفسير الطبري (٢٣ / ١٧٩)، تفسير البغوي (٣ / ٧٠١) (٢٥ / ١٥٢)، وتفسير السعدي (٣ / ١٠٥٩) .

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٣٠ / ٢٣٧) .

رابعاً : الاستدلال بخلقها وملكها على وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١ – ٢٢]، قال ابن كثير رحمه الله : (ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يُشرك به غيره)[١] .

خامساً : بيان امتنان الله تعالى بها على عباده والذي يستلزم إفراده بالعبادة فالله عز وجل يمن على عباده بخلقه لهذه الآيات العظيمة وتسخيرها للناس وتيسيرها لهم، وهو بذلك يدعوهم إلى عباده وحده، قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ – ٦٧]، قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله : (وهذا امتنان منه على عباده، يدعوهم به إلى توحيده وعبادته والإنابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسر لهم من الحرث والزروع والثمار، فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه، ماهو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم، التي لا يقدرون أن يحصوها، فضلاً عن شكرها، وأداء حقها)[٢]، فتُعرض الآيات الكونية، كلها في معرض نعم الله وفضله على الناس، وفي معرض الوحدانية وإخلاص الدين لله، وهي وإن كانت مناً يحق أن يشكرها الناس، فإنها دلائل إذا تفكر فيها المنعم عليهم اهتدوا إلى أن الذي يخلق هذا

---

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٦٠) .

(٢) تفسير السعدي (٤ / ١٧٦٨) .

ويبدعه بهذا التناسق هو الإله الحق الذي يجب أن يعبد وحده ويخلص له الدين وحده [1]، وكذلك في قوله تعالى : ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ﴾ [الرحمن : ٥]، " فهذ استدلالٌ على التفرد بخلق كوكب الشمس وكوكب القمر، وامتنانٌ بما أودع فيهما من منافع الناس، ونظام سيرهما الذي به تدقيق نظام معاملات الناس واستعدادهم لما يحتاجون إليه عند تغيرات أجوائهم وأرزاقهم، ويتضمن الامتنان بما في ذلك من منافعهم "[2] .

المسألة الثالثة : تقرير توحيد الأسماء والصفات :

معنى توحيد الأسماء والصفات : إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته من الأسماء الحسنى والصفات العُلَى، من غير تحريف ألفاظها أو معانيها، ولا تعطيلها بنفيها أو نفي بعضها عن الله عز وجل، ولا تكييفها بتحديد كنهها، وإثبات كيفية معينة لها، ولا تشبيهها بصفات المخلوقين[3] .

وتوحيد الله سبحانه وتعالى في أسمائه وصفاته عند أهل السنة والجماعة قائم على أسس جليلة منها :

أ- أن أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية فلا نثبت له تعالى ولا ننفي عنه، إلا بدليل من الكتاب أو السنة إذ لا سبيل إلى ذلك إلا من هذا الطريق .

ب- أن الله جل وعلا : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١].

---

(١) انظر : التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٥ / ٣٣٧) .

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٧ / ٢٣٤) .

(٣) الأسماء والصفات نقلاً وعقلاً، الشنقيطي (٨) .

ج – أن صفات الله كلها صفات كمال، لا نقص فيها بأي وجه من الوجوه[١].

طرائق الآيات الكونية في تقرير توحيد الأسماء والصفات :

إن إبداع الخلق وإحكامه، يستلزم الإقرار بالخالق، ويستلزم مع ذلك الإقرار بعلمه، وبقدرته، وبعظمته، وبرحمته، وسائر أسمائه وصفاته، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦١ – ٦٢]، وقال تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٩ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ [لقمان : ٢٩ – ٣٠]، ففي هذه الآيات وغيرها، ختم الله الكلام عن مظاهر قدرته في خلق الكون وما في الأرحام، بذكر أسمائه الحسنى وصفاته العلى [٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (فإن كل ما يعلم ويقال، يدخل في معرفة الله، إذ لا موجود إلا وهو خالقه، وكل ما في المخلوقات من الصفات والأسماء والأقدار والأفعال، فإنها شواهد ودلائل على ما لله سبحانه من الأسماء

(١) انظر : التدمرية، ابن تيمية (٣٩، وما بعدها)، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، ابن عثيمين (٥– ١١) .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز (١ / ٥٢)، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. زاهر الشهري (٢٩) .

الحسنى والصفات العلى إذ كل كمال في المخلوقات فمن أثر كماله)[1]، وقال ابن جزي رحمه الله : (كل ما جاء في القرآن من التنبيه على المخلوقات، والاعتبار في خلقه الأرض والسموات، والحيوان، والنبات، والريح والأمطار، والشمس والقمر، والليل والنهار، وغير ذلك من الموجودات، فهو دليل على خالقه، ومنه إثبات الوحدانية، والرد على المشركين، والتعريف بصفات الله) [2] ، وفي سورة الروم ذكر الله عز وجل عدة آيات كونية بدأها بقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾وختمها بقوله سبحانه : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٢٠ – ٢٧]، يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسيرها : (هذا شروع في تعداد آياته الدالة على انفراده بالإلهية وكمال عظمته، ونفوذ مشيئته وقوة اقتداره وجميل صنعه وسعة رحمته وإحسانه فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ وذلك بخلق أصل النسل آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ أي : الذي خلقكم من أصل واحد ومادة واحدة

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٧ / ٥٦٩ – ٥٧٠) .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي (١ / ١٤) .

وبثكم في أقطار الأرض وأرجائها ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل وبثكم في أقطار الأرض هو الرب المعبود الملك المحمود والرحيم الودود الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت، ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ الدالة على رحمته وعنايته بعباده وحكمته العظيمة وعلمه المحيط ....، إلى أن قال : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، يُعملون أفكارهم ويتدبرون آيات اللّه وينتقلون من شيء إلى شيء)[1]، و يقول ايضاً رحمه الله عند قوله تعالى : (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦٓ) : أي : (ومن آياته العظيمة أن قامت السماوات والأرض واستقرتا وثبتتا لأمره فلم يتزلزلا، ولم تسقط السماء على الأرض، فقدرته العظيمة التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا، يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض إذا هم يخرجون، ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾، ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : الكل خلقه ومماليكه المتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض وكلهم قانتون لجلاله خاضعون لكماله، ... ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به يعتبر المعتبرون ويتذكر المؤمنون ويتبصر المهتدون ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير فقال : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، وهو كل صفة كمال، والكمال من تلك الصفة والمحبة والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين والذكر الجليل والعبادة منهم، فالمثل الأعلى هو وصفه الأعلى وما ترتب عليه، ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى، فيقولون : كل صفة كمال في المخلوقات فخالقها أحق بالاتصاف بها على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص

(١) تيسير الكريم المنان، ابن سعدي (١٣٣١) .

في المخلوق ينزه عنه ، فتنزيه الخالق عنه من باب أولى وأحرى، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الحكيم ﴾ أي : له العزة الكاملة والحكمة الواسعة، فعزته أوجد بها المخلوقات وأظهر المأمورات، وحكمته أتقن بها ما صنعه وأحسن فيها ما شرعه) [1] ، و قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٥ – ٦]، قال الإمام ابن القيم رحمه الله : (فأما المفعولات فأنها دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات، فإن المفعول يدل على فاعل فعله، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه، لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة، ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على إرادة الفاعل، وأن فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحداً غير متكرر، وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى، وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته، وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دال على غضبه، وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دال على محبته، وما فيها من الإهانة والإبعاد والخذلان دال على بغضه ومقته، وما فيها من ابتداء الشئ في غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد، وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرف المياه دليل على إمكان المعاد، وما فيها من ظهور الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات، وما فيها من الكمالات التي لو

(١) تيسير الكريم المنان، السعدي (١٣٣٢ – ١٣٣٣) .

عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطي تلك الكمالات أحق بها، فمفعولاته من أدل شئ على صفاته وصدق ما أخبرت به رسله عنه، فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات، منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات)[١] .

المسألة الرابعة : تقرير بطلان الشرك وفساده :

تعريف الشرك وبيان خطره :

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تعريفه للشرك : (وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده، فإنه لم يعدل أحد بالله شيئاً من المخلوقات في جميع الأمور، فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك به)[٢]، والشرك قد عرفه النبي صلى الله عليه وسلم بتعريف جامع، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : (أن تجعل لله ندا وهو خالقك) [٣]، والند هو المثل والشبه، فمن صرف شيئا من العبادات لغير الله فقد أشرك به شركاً يبطل التوحيد وينافيه، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته من الشرك، وسد كل الطرق التي تفضي إليه، لأن للشرك آثارًا خطيرة، ومفاسد جسيمة، وأضرارًا مهلكة ومنها شر الدنيا والآخرة، وهو السبب الأعظم لحصول الكربات في الدنيا والآخرة، ويسبب الخوف وينزع الأمن في الدنيا والآخرة، ويحصل لصاحب الشرك الضلال في الدنيا والآخرة، قال الله عز وجل : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١١٦]، ثم إن الشرك

---

(١) انظر : الفوائد، ابن القيم (٣٢)، تفسير السعدي (٢ / ٦٩٩) .

(٢) الاستقامة، ابن تيمية (١ / ٣٤٤) .

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى " فلا تجعلوا لله إنداد" (٣/١٩٠-١٩١) رقم (٤٤٧٧).

الأكبر لا يغفره الله إذا مات صاحبه قبل التوبة، قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨]، والشرك الأكبر يحبط جميع الأعمال، قال الله عز وجل : ﴿ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الانعام : ٨٨]، ويوجب الله لصاحبه النار ويحرم عليه الجنة، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار)[1]، ويخلد صاحبه في النار، قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ [البينة : ٦] .

طرائق الآيات الكونية في تقرير بطلان الشرك وبيان فساده :

الشرك أعظم ذنب عُصي الله تعالى به، وقد تنوعت أدلة القرآن وبراهينه في بيان بطلانه، وكان من أعظم مقاصد ذكر الآيات الكونية في القرآن الكريم التحذير منه وبيان فساده وجاء ذلك من عدة نواحٍ منها ما يأتي :

أولاً : لفت أنظار المشركين إلى مظاهر عظمة الخالق عز وجل في الكون، وهذا ما جاءت بتقريره عدد من الآيات كقول الله تعالى : ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعًا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ومن مات مشركا دخل النار (٥٥/١)رقم(٩٣).

كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣] .

ثانياً : أن الآيات الكونية يرد ذكرها في القرآن أحياناً بقصد التحدي لإقامة التوحيد وإبطال الشرك كما ذكر الله عز وجل في قصة مناظرة إبراهيم عليه السلام مع النمرود ذلك المشرك الجاحد : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ففي هذه الآية تحدٍّ واضح، وحجة دامغة، وبرهان ساطع، لإقامة التوحيد، وللرد على أهل الشرك والجاحدين لإلهية الله تعالى وربوبيته (فإن إبراهيم عليه السلام لما أجاب المحاج له في الله بأنه الذي يحيى ويميت، أخذ عدو الله معارضته بضرب من المغالطة، وهو أنه يقتل من يريد، ويستبقي من يريد، فقد أحيا هذا وأمات هذا، فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة، أن يتصرف في حركة الشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها، إذا كان بزعمه قد ساوى الله في الإحياء والإماتة، فإن كان صادقًا، فليتصرف في الشمس تصرفًا تصح به دعواه)[(١)].

ثالثاً : أن الآيات الكونية يرد ذكرها في القرآن أحياناً، لمحاجة المشركين وإبطال ما هم عليه من عبادة بعضها، كما جاء في ذكر محاجة إبراهيم عليه

(١) انظر : الصواعق المرسلة، ابن القيم (٢ / ٤٩٠ – ٤٩١)، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. زاهر الشهري (٣٠).

السلام لعبدة الكواكب وإبطال عبادتهم لها :﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥ – ٧٩]، يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات : (واذكر قصة إبراهيم، عليه السلام، مثنيا عليه ومعظما في حال دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك، ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ أي : لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء، ﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ : حيث عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئا، وتركتم عبادة خالقكم، ورازقكم، ومدبركم، ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾، حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه، ﴿ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : ليرى ببصيرته، ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ فإنه بحسب قيام الأدلة، يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب.... إلى أن قال : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فتبرأ من الشرك، وأذعن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان ...)[1] .

(١) تيسير الكريم المنان، ابن سعدي (٤٨٦ – ٤٨٧) .

رابعاً : إبطال الشرك بضرب الأمثلة ببعض هذه الآيات الكونية في القرآن الكريم، فقد ضرب الله عز وجل الأمثلة المقنعة بمخلوقاته وآياته الكونية على بطلان الشرك وفساده وحقارة عقول المشركين وتسفيهها حينما توجهت إلى عبادة غيره، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣]، يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله : (هذا مثل ضربه الله لقبح عبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول من عبدها، وضعف الجميع، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ هذا خطاب للمؤمنين والكفار، المؤمنون يزدادون علما وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة، ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ أي : ألقوا إليه أسماعكم، وافهموا ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلوباً لاهية، وأسماعاً معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع، وهو هذا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ : شمل كل ما يُدعى من دون الله، ﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ : الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها، فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف، فما فوقه من باب أولى، ﴿ وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ : بل أبلغ من ذلك لو ﴿ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ : وهذا غاية ما يصير من العجز، ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ ﴾ : الذي هو المعبود من دون الله ﴿ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ : الذي هو الذباب، فكل منهما ضعيف، وأضعف منهما، من يتعلق بهذا الضعيف، وينزله منزلة رب العالمين، فهذا ما قدر اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، حيث سوى الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالغني القوي من جميع الوجوه، سوى من لا يملك لنفسه، ولا لغيره نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، بمن هو النافع الضار، المعطي المانع، مالك الملك، والمتصرف فيه بجميع أنواع

التصريف) [1]، وكذلك من الأمثلة المضروبة بالآيات الكونية على بطلان الشرك وفساده، قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤١]، يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في تفسيره : (هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره، يقصد به التعزز والتَّقَوِّي والنفع، وأن الأمر بخلاف مقصوده، فإن مثله كمثل العنكبوت، اتخذت بيتا يقيها من الحر والبرد والآفات، ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ ﴾ أضعفها وأوهاها ﴿ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفا، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء، فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم، ازدادوا ضعفا إلى ضعفهم، ووهنا إلى وهنهم، فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوها عليهم، وتخلوا هم عنها، على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل، فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم، حالهم وحال من اتخذوهم، لم يتخذوهم، ولتبرأوا منهم، ولتولوا الرب القادر الرحيم، الذي إذا تولاه عبده وتوكل عليه، كفاه مئونة دينه ودنياه، وازداد قوة إلى قوته، في قلبه وفي بدنه وحاله وأعماله)[2] .

خامساً : من المقاصد العقدية الدقيقة التي ارتبطت بالآيات الكونية دلالتها على الوعيد والتهديد للمشركين والكفار المعاندين، وذلك أن الكائنات المخبر عنها في هذه الآيات تعتبر جنداً من جند الله تعالى يسخرها لمن يشاء من عباده،

(١) تيسير الكريم المنان، ابن سعدي (١١١٧) .

(٢) تيسر الكريم المنان، ابن سعدي (١٣١٤ – ١٣١٥) .

لتكون له عطاءً ومنةً، كما يسلطها على من يشاء منهم ممن استحق العذاب والعقاب، لتكون عليه بلاءً ونقمة، فقد جاء في تفسير الرازي : (فحكايات لوط تدل على أن التراب الذي منه الوجود والبقاء إذا أراد الله جعله سبب الفناء، والماء كذلك في قوم فرعون، والهواء في عاد، والنار في ثمود)[١] .

سادساً : الدلالة على بطلان عقائد المشركين في بعض المخلوقات العظيمة، كزعمهم بألوهية الشمش والقمر، والليل والنهار، والنجم ، يقول الطاهر بن عاشور في إشارة إلى إبطال اتخاذ المشركين الشمس والقمر آلهة : (ووجهه : أنهم غفلوا عما في نظام الشمس والقمر من الحكمة وما يدل عليه ذلك النظام من تفرد الله بتقديره، فاشتغل بعضهم بعبادة الشمس وبعضهم بعبادة القمر، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾)[٢]، ويقول في إبطال المشركين اتخاذ الليل والنهار ألهة في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ [النبأ : ١٠]، : (حيث بين هنالك بطلان اعتقاد الدهريين في الليل إذ كانوا يزعمون أنه رب الظلمة، مع الإشارة إلى بطلان مقولة المجوس في كون المخلوقات كلها مصنوعة من أصلين، أي : إلهين : وهما إله النور وهو صانع الخير، وإله الظلمة وهو صانع الشر)[٣]، ويقول الرازي في إبطال اتخاذ المشركين النجوم آلهة عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم : ١] : (وفيه لطيفة، وهي أن الله لما أقسم بالنجم شرفه وعظمه، وكان من المشركين

(١) التفسير الكبير، الرازي (٢٨ / ١٨٩) .

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٧ / ٢٣٤) .

(٣) المصدر السابق (٣٠ / ٢٠) .

من يعبده، فقرن بتعظيمه وصفاً يدل على أنه لم يبلغ درجة العبادة، فإنه هاو آفل) [1] .

المطلب الثاني : تقرير النبوة وتأكيد صدق الأنبياء عليهم السلام :

معنى النبوة :

النبوة في اللغة : مشتقة من النبأ بمعنى الخبر، قال تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [التحريم : ٣]، جاء في لسان العرب: (النبأ : الخبر، والنبئ المخبر عن الله عز وجل، لأنه أنبأ عنه، وهو فعل بمعنى فاعل)، والنبوة شرعاً : هي إعلام الله تعالى من اجتبى من الناس لرفعته والإعلاء من شأنه، بإنبائه بالوحي الذي أراده له، أولغيره[2] .

مذهب أهل السنة والجماعة في النبوة :

ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن النبوة اصطفاء من الله، واختيار منه لعبده من بين سائر الناس، يختصه برحمته، ويصطفيه بفضله ومنته، وليست مجرد صفة إضافية، وقالوا: إن النبي يختص بصفات ميزه الله بها على غيره، وبصفات فضله بها بعد البعثة لم تكن موجودة فيه من قبل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (والله سبحانه قد أخبر أنه يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس والاصطفاء : افتعال من التصفية، كما أن الاختيار: افتعال من الخيرة، فيختار من يكون مصطفى، وقد قال : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ

(١) التفسير الكبير، الرازي (٢٨ / ٢٣٣) .

(٢) عقيدة المؤمن، الجزائري (١٥٣) .

حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فهو أعلم بمن يجعله رسولا ممن لم يجعله رسولا، ولو كان كل الناس يصلح للرسالة لامتنع هذا، وهو عالم بتعيين الرسول، وأنه أحق من غيره بالرسالة، كما دل القرآن على ذلك .. إلى أن قال: والله سبحانه اتخذ رسولا فضله بصفات أخرى لم تكن موجودة فيه من قبل إرساله، كما كان يظهر لكل من رأى موسى وعيسى ومحمدا من أحوالهم وصفاتهم بعد النبوة، وتلك الصفات غير الوحي الذي ينزل عليهم)[١] .

طرائق الآيات الكونية في تقرير النبوة وتأكيد صدق الأنبياء عليهم السلام :

من مقاصد الآيات الكونية تقرير النبوة وصدق الأنبياء عليهم السلام، فإنه من رحمة الله عز وجل وكمال حكمته أنه آتى الأنبياء عليهم السلام آيات كثيرة ومتنوعة لتيسير معرفة الحق وإظهار آياته وبراهينه فدلائل النبوة كدلائل الربوبية، منها الظاهر لكل أحد، ومنها الخفي الذي يختص العلماء بمعرفته، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (دلائل النبوة من جنس دلائل الربوبية، فيها الظاهر البين لكل أحد، كالحوادث المشهودة، مثل خلق الحيوان والنبات والسحاب، وإنزال المطر، وفيها ما يختص به من عرفه، مثل دقائق التشريح، ومقادير الكواكب وحركاتها، وغير ذلك، فإن الخلق كلهم محتاجون إلى الإقرار بالخالق، والإقرار برسله، وما اشتدت الحاجة إليه في الدين والدنيا فإن الله يجود به على عباده جودا عاما ميسرا)[٢].

وقد ذكر الله كثيراً من هذه الآيات في كتابه الكريم وبالنظر والتأمل فيها نجد أنها آيات كونية قدرية ودلائل حسية لمن شاهدها واستفاض الخبر بها لمن غاب

---

(١) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية (٥/٤٣٧ – ٣٤٨) . النبوات، ابن تيمية (٣٠–٣١).

(٢) انظر : الجواب الكافي، ابن تيمية (٢ / ٥١٣)، النبوات، ابن تيمية (١ / ٥٢٣)، خلاصات في مباحث الربوبية، د.عيسى السعدي (٩٠) .

عنها، وأنها من أقوى الطرق وأصحها في تقرير النبوة وإثبات صدق الأنبياء عليهم السلام، ذُكرت في القرآن الكريم تأييدا لأنبياء الله ورسله عليهم السلام ودليلاً بيناً على صدقهم، وسنقتصر على بعضها ليكون شاهداً على غيرها، فمن ذلك ما يأتي:

١- آية صالح عليه السلام، قال الله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۘ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٧٣]، وقال سبحانه : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء : ٥٩] قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : (أي بينة تدل على وحدانية خالقها وكماله، وتدل على صدق رسوله الذي سأل الله تعالى أن يخرج لهم الناقة من الصخرة الصماء التي عينوها، فخرجت كما اقترحوا إلا أنهم كفروا بهذه الآية العظيمة، وعقروا الناقة، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وأبادهم عن آخرهم)[1] .

٢- آية ابراهيم عليه السلام قال الله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٦٨-٧٠]، وقال سبحانه : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٤ / ٥٥ – ٥٨، ٥ / ٩٢).

ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٢٤] ، فأنجاه الله من هذه النار العظيمة التي ألقي فيها مكتوفاً وبقي فيها أياماً، وكان ذلك آية عيانية كبرى على كمال قدرة الله تعالى وصدق خليله عليه السلام، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة، وحوطوا حولها، ثم أضرموا فيها النار، فارتفع لها لهب إلى عنان السماء، ولم توقد نار قط أعظم منها، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفة المنجنيق، ثم قذفوا به فيها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وخرج منها سالماً بعد ما مكث فيها أياماً، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماما، فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، وسخا بولده للقربان، وجعل ماله للضيفان، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان)[1].

٣- آيات موسى عليه السلام التسع لفرعون وقومه، وهي الأخذ بالسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٠-١٣٣]، وكلها آيات كونية ظاهرة، ومعجزات ربانية قاهرة، وحجج دامغة على صدق موسى عليه السلام فيما يخبر به عن ربه عز وجل، قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في تفسير الآية الأولى : (أي: ولقد

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٥٤) .

أخذنهم بالدهور والجدب، (وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) أي: يتعظون أن ما حل بهم، وأصابهم معاتبة من الله لهم لعلهم يرجعون عن كفرهم، فلم ينجح فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد)[1]، وقال رحمه الله في تفسير الآية الآخيرة : (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ أي : الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم وزروعهم وأضر بهم ضرراً كثيراً، (وَٱلْجَرَادَ)، فأكل ثمارهم وزروعهم ونباتهم، (وَٱلْقُمَّلَ)، قيل : إنه الدباء، أي : صغار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف، (وَٱلضَّفَادِعَ)، فملأت أوعيتهم وأقلقتهم وآذتهم أذية شديدة، (وَٱلدَّمَ)، إما أن يكون الرعاف، أو كما قال كثير من المفسرين : إن ماءهم الذي يشربون انقلب دما، فكانوا لا يشربون إلا دماً ولا يطبخون إلا بالدم، (ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ)، أي: أدلة وبينات على أنهم كانوا كاذبين ظالمين، وعلى أن ما جاء به موسى حق وصدق، (فَٱسْتَكْبَرُواْ)، لما رأوا الآيات (وَكَانُواْ)، في سابق أمرهم (قَوْمًا مُّجْرِمِينَ)، فلذلك عاقبهم الله تعالى بأن أبقاهم على الغي والضلال)[2].

٤- آيات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهي كثيرة جداً، وذلك أن من حكمة الله تعالى ورحمته أن آتى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم أعظم الآيات

(١) تيسير الكريم المنان، ابن سعدي (٥٧٧) .

(٢) نفس المصدر السابق (٥٧٨) .

وأكثرها وأظهرها وأدمومها، لأن رسالته إلى جميع الثقلين، وهو خاتم الأنبياء وآخرهم(١)، وسنكتفى منها بآيتين جليلتين :

أ– الحراسة التامة للسماء، قال تعالى عن الجن : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن : ٨–٩]، فبعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وفي أثناء نزول القرآن منجما كثر الرمي بالشهب كثرة خارقة للعادة، وحرست السماء بالشهب حراسة تامة، حالت بين الشياطين وخبر السماء، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (من آياته الظاهرة في القرآن ما ذكره من أن السماء ملئت حرساً شديدا، وشُهبا بخلاف ما كانت العادة الجارية به ... إلى أن قال : وقبل ذلك لم يكن الحرس شديدا، ولا كانت السماء مملوءة حرساً وشهبا، كما هي الآن يرمى بها أحيانا)(٢) .

ب– انشقاق القمر، قال تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١].

أي قرب قيام الساعة، وانشق القمر، آية على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، روى البخاري بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا)(٣)، وروى البخاري أيضا بسنده عن

(١) انظر : الجواب الصحيح، ابن تيمية (٢ / ٤٩٦، ٥٠٠)، خلاصات في مباحث النبوات، د.عيسى السعدي (١٠٩، ١٢٧–١٢٨) .

(٢) نفس المصدر السابق (٢ / ٥٦٤ – ٥٦٩) .

(٣) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر، حديث رقم : (٣٦٩٠).

أنس رضي الله عنه : (أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما)[1] والأحاديث في هذا متواترة [2]، وهي آية عظيمة لا يكاد يعدلها شئ من آيات الأنبياء، قال الخطابي رحمه الله: (انشقاق القمر آية عظيمة، لا يكاد يعدلها شئ من آيات الأنبياء، وذلك أنه ظهر في ملكوت السماء خارجاً من جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع، فليس مما يطمع في الوصول إليه بحيلة، فلذلك صار البرهان به أظهر) [3] .

ومن هنا يتبين لنا أن معجزات الأنبياء عليهم السلام هي الآيات التي أعجزوا بها البشر أن يأتوا بمثلها، وتكون تأييداً لهم وبياناً لصدقهم، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في بيان أن طريقة الاستدلال بالآيات الكونية المأخوذة عن الحس لمن شاهدها، واستفاضة الخبر لمن غاب عنها، وأنها من أقوى الطرق وأصحها، وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله، ودلالة ذلك على تأييد الله لأنبيائه : (وهذه الطريق من أقوى الطرق وأصحها، وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله، وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل، ودلالتها ضرورية بنفسها، ولهذا يسميها الله سبحانه آيات بينات، وليس في طريق الأدلة أوثق ولا أقوى منها، فإن انقلاب عصا تقلها اليد إلى ثعبان عظيم يبتلع ما يمر به ثم يعود عصا كما كانت من أدل الدليل على وجود الصانع وحياته وقدرته وإرادته وعلمه بالكليات والجزئيات، وعلى رسالة الرسول وعلى المبدأ والمعاد، فكل قواعد الدين في هذه العصا ...) ثم ذكر أمثلة

(١) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر، حديث رقم: (٣٦٨٩).
(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٧ / ٨٣) .
(٣) انظر : فتح الباري، ابن حجر (٧ / ١٨٥) .

ثم قال : (وأمثال ذلك مما هو من أعظم الأدلة على الصانع وصفاته وأفعاله وصدق رسله واليوم الآخر)[١]، وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في بيان كيف يقرر القرآن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه يكون أحياناً عن طريق الآيات الكونية : (وتارة يقرر رسالته بما أظهر على يديه من المعجزات، وما أجرى له من الخوارق والكرامات، الدال كل واحد منها بمفرده – فكيف إذا اجتمعت – على أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى)[٢]، ويبين الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله أن الله تعالى يسمي معجزات الأنبياء عليهم السلام آيات لعظم دلالتها على صدقهم وتأييد الله لهم بها فيقول : (معجزات الأنبياء هي الآيات التي أعجزوا بها البشر أن يأتوا بمثلها والله تعالى يسميها آيات، وهي علامات دالة على صدق الرسل صلوات الله وسلامه عليهم فيما جاؤوا به من الرسالة)[٣] .

المطلب الرابع: تقرير وقوع اليوم الآخر وإثبات البعث :

معنى الإيمان باليوم الآخر وأهميته :

الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان الستة، وقد دلت على ذلك الآيات القرآنية وأحاديث السنة النبوية، واتفق المسلمون على الإيمان به، ونقل أهل العلم الإجماع على ذلك [٤]، ومعنى الإيمان به : هو التصديق الجازم بإيمانه وبجميع

(١) انظر : مختصر الصواعق المرسلة، ابن القيم (٢ / ٤٨٧–٤٩٠)، الآيات الكونية دراسة عقدية، د.عبدالمجيد الوعلان (١١٣ – ١١٤) .

(٢) القواعد الحسان، ابن سعدي (٢٩، ٤٢)

(٣) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (٥ / ٣٠٣) .

(٤) السنة، ابن أبي عاصم (٢ / ٤١٦)، الإيمان، ابن منده (١ / ١٣٣)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي (٥ / ١٢٣٠)، والفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم (٤ / ٧٩)، مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٧ / ٣٥٧).

تفاصيله والعمل بموجب ذلك، والإيمان بكل ما ورد من أخبار ذلك اليوم في كتاب الله جل وعلا وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم [1]، ومما يؤكد أهمية الإيمان به، كثرة وروده في نصوص الشرع، وكثرة ارتباط الإيمان به مع الإيمان بالله عز وجل، وكثرة أسمائه، وما يترتب على الإيمان به من الثمرات الجليلة والآثار العظيمة [2] .

طرائق الآيات الكونية في تقرير وقوع اليوم الآخر وإثبات البعث :

لقد كان من أهم مقاصد ذكر الآيات الكونية في القرآن الكريم إثبات البعث واليوم الآخر، والرد على من أنكره من المشركين والكفار، وجاء ذلك من عدة نواحٍ منها :

أولاً : قياس النشأة الأخرى على النشأة الأولى [3]، فكما أنه سبحانه استطاع أن يخلق الخلق من عدم، فهو قادر على أن يخلق الخلق مرة أخرى والمادة موجودة بل هذا أسهل عقلًا، وهما في السهولة عند الله سواء، لقوله تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ ﴾ [لقمان : ٢٨]، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٢٧]، وهم يقرون بأن الله هو الذي خلقهم أول مرة : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

---

(١) اليوم الآخر، د.محمد ابراهيم الحمد (٣) .

(٢) انظر : اليوم الآخر، د.عبدالمحسن المطيري (٣٦) .

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٣ / ٢٩٨)، مجموع فتاوى العقيدة، ابن عثيمين (٥ / ١٣٣)، اليوم الآخر، المطيري (١٧٥ – ١٧٦) .

[الزخرف: ٨٧]، ومن أقر بذلك فقد خُصِمَ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال الله : (كَذَّبَنِي ابنُ آدَمَ ولَمْ يَكُنْ له ذلكَ، وشَتَمَنِي ولَمْ يَكُنْ له ذلكَ، فأمَّا تَكْذِيبُهُ إيَّايَ فَقَوْلُهُ : لَنْ يُعِيدَنِي، كما بَدَأَنِي، وليسَ أوَّلُ الخَلْقِ بأَهْوَنَ عَلَيَّ مِن إعادَتِهِ، وأمَّا شَتْمُهُ إيَّايَ فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ اللَّهُ ولَدًا وأنا الأحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ ولَمْ أُولَدْ، ولَمْ يَكُنْ لِي كُفُؤًا أحَدٌ)[1].

وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٦٦ – ٦٨]، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٧ – ٤٠]، والآيات في هذا كثيرة كقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٧ – ٧٩]، فالذي خلق الإنسان وأنشأه من العدم، قادر على أن يعيده مرة أخرى، فالإعادة أولى، وأيسر وأهون، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(١) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب سورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾، حديث رقم: (٤٦٩٠) .

[الروم : ٢٧]، (فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الآخرة، إذ كل عاقل يعلم ضروريا أن من قدر على هذا، قدر على هذا، وأنه لو كان عاجزا عن الثاني لكان عن الأول أعجز وأعجز، و لما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه وعلمه بتفاصيل خلقه، أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس:٧٩]، فهو عليم بالخلق الأول وتفاصيله وجزئياته ومواده وصورته ... وكذلك هو عليم بالخلق الثاني وتفاصيله ومواده وكيفية إنشائه، فإن كان تام العلم كامل القدرة، كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم)[1].

قال د. محمد السيد الجليند : (تأمل معنى هذه الآية الكريمة تجدها تطلق من عالم الشهادة باعتباره واقعًا محسوسًا لا يمكن إنكاره، وتستدل به على الخلق الثاني، وقد تضمنت الآية عددًا من الأدلة تعتمد كلها على عالم الشهادة ركيزة أساسية للاستدلال على البعث :

الدليل الأول : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ ... ونزلت الآية لتقول له : كيف تضرب لله الأمثال بهذه القطعة، وتنسى أنك كنت عدمًا فأصبحت موجودًا ؟ أليس الذي أوجدك من العدم أول مرة، قادرًا على إعادتك مرة ثانية ؟ ألا تكون الإعادة أهون من الخلق الأول ؟ الدليل الثاني : ثم جاءت الآية الثانية بدليل أكثر عمومًا، فقال للرسول : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ : ليفهم المخاطب أن الذي تكفل بالخلق الأول من العدم، قادر على الثاني من وجود)[2].

---

(١) انظر : الصواعق المرسلة، ابن القيم (٢ / ٤٧٤)، شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز(١ / ٤٠٦)، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. زاهر الشهري (٣١ – ٣٥).

(٢) الوحي والإنسان قراءة معرفية، الجليند، (١٧٤ – ١٧٥) .

ثانياً : لفت الأنظار إلى خلق ما هو أعظم خلقًا من الإنسان، وهو خلق السموات والأرض، فإن خلقها أعظم من خلق الإنسان، والقادر على خلق هذا الخلق العظيم، قادر على خلق ما دونه من المخلوقات وإحيائها بعد موتها(١)، وهم يقرون أن الله هو خالق السموات والأرض : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف : ٩]، ومن أقر بهذا لزمه أن يقر بالبعث لأنه أسهل من خلقهما، قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧]، وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٣]، وهذا من قياس الأولى، قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴾ [الصافات : ١١]، وقال تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات : ٢٧ – ٢٩]، وهذه إحدى مقاصد خلق السماوات حيث يُستدل بها على البعث الآخر، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : ٢]، فخلق السموات

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٣ / ٢٩٨) .

والأرض أعظم من إعادة الإنسان، (وهذا من أبلغ الأدلة على المعاد، أي : أن الذي خلق السموات والأرض وخلقها أكبر من خلقكم، كيف يُعجزه خلقكم بعد ما تموتون خلقًا جديدًا، ونظير هذا في قوله في سورة يس : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس : ٨١]، (فهذا استدلال بشمول القُدَرة للنوعين، وَأَنَّهَا صَالِحَة لَهما فَلَا يجوز أَن يثبت تعلقهَا بِأحد المقدورين دون الآخر، فَكَذَلِك قَوْله : ﴿ لخلق السَّمَوَات وَالْأَرْض أكبر من خلق النَّاس ﴾ أي : من لم تعجز قدرته عَن خلق الْعَالم الْعلوِي والسفلي، كَيفَ يعجز عَن خلق النَّاس خلقا جَدِيدا بعد مَا أماتهم)[1].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : (فأخبر سبحانه أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما، وعظم شأنهما وكبر أجسامهما وسعتهما، وعجيب خلقتهما أقدر على أن يحيي عظامًا قد صارت رميمًا، فيردها إلى حالتها الأولى) [2].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسيره هذا الآية الكريمة : (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)، يقول تعالى منبها على قدرته العظيمة في خلقه السماوات السبع، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال، وبحار وقفار، وما بين ذلك، ومرشدا إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه

---

(١) مفتاح دار السعادة، (٢ / ١٩٨)، مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٣ / ٢٩٩)، درء تعارض التعارض، ابن تيمية (١ / ٣٢).

(٢) الصواعق المرسلة، ابن القيم (٢ / ٤٧٦)، شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز (٢ / ٥٩٥) .

الأشياء العظيمة، كقوله تعالى : ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾[غافر : ٥٧] . وقال هاهنا : ﴿أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ أي : مثل البشر، فيعيدهم كما بدأهم)[١] .

ثالثاً : أن الأرض تكون ميتة هامدة خاشعة، فينزل عليها المطر فتهتز حية فيها من كل زوج بهيج، والقادر على إحيائها بعد موتها قادر على إحياء الأموات [٢] .

قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾ [النحل: ٦٥]، وقال تعالى : ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾ [ق : ٧ – ١١]، وهذا قياس واضح جلي فإحياء النبات كالخروج ليوم القيامة، مثله قوله تعالى : ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الروم : ٥٠]، ومثله قوله تعالى :﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩]، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٩ / ٨٥) .

(٢) مجموع فتاوى العقيدة، ابن عثيمين (٥ / ١٣٣٣) .

تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت : ٣٩]، (فَدَلَّ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ الْإِحْيَاءِ الَّذِي تَحَقَّقُوهُ وَشَاهَدُوهُ عَلَى الْإِحْيَاءِ الَّذِي اسْتَبْعَدُوهُ، وَذَلِكَ قِيَاسُ إحْيَاءٍ عَلَى إحْيَاءٍ، وَاعْتِبَارُ الشَّيْءِ بِنَظِيرِهِ) [1]، وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ – ٦٤]، قال الماوردي رحمه الله : (وتتضمن هذه الآية أمرين، أحدهما : الامتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم، الثاني : البرهان الموجب للاعتبار، لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذره، وانتقاله إلى استواء حاله من العفن والتتريب حتى صار زرعا أخضر، ثم جعله قويا مشتدا أضعاف ما كان عليه، فهو بإعادة من أمات أخف عليه وأقدر، وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفطر السليمة) [2]، وعن أبي رزين قال قلت : يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ فقال : (أما مررت بواد ممحل ثم مررت به خصيبًا)، قال قلت : بلى، قال : (كذلك يحي الله الموتى)، أو قال : (كذلك النشور)) [3]، ومثله قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن

(١) إعلام الموقعين، ابن القيم (١ / ١٠٧) .

(٢) نقله عنه القرطبي رحمه الله في تفسيره (١٨ / ١٤١) .

(٣) مسند الإمام أحمد حديث رقم : (١٥٧٦٣)، منحة المعبود ترتيب مسند الطيالسي، الساعاتي (٢ / ٢٢٥) .

وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥]، فذكر الله في هذه الآية مقصدين من مقاصد خلق الإنسان في هذه الأطوار لتقرير البعث، الأول : قياسه على خلقه الأول للإنسان، الثاني : قياسه على إحياء الأرض بعد موتها بالنبات، ثم يبين الله تعالى أن هذه البراهين تدل على خمسة أشياء : الأول : أن الله هو الإله الحق، الثاني : أنه يحي الموتى، الثالث : أنه يدل على قدرة الله المطلقة، الرابع : أن الساعة حق، الخامس : أن الله يبعث من في القبور، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٦– ٧] (١)، وهم يقرون بأن الله هو الذي ينزل المطر ويحي النبات :﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٣]، ومن أقر بهذا يلزمه الإقرار بالبعث .

رابعاً : الشجر إذا قطع وأصبح حطبا يكون ميتا وليس فيه أثر للحياة، فإذا أوقدت به النار دبت فيه الحركة واضطرب، وهذه آثار الحياة، فمن قدر على هذا

(١) الإيمان باليوم الآخر، المطيري (١٧٨) .

قادر على إحياء الموتى[1]، وقد ذكر الله تعالى هذا المقصد من ذكر النار في القرآن الكريم في موضعين من كتابه سبحانه وتعالى :﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ [الواقعة : ٧١- ٧٢]، وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٧٧ – ٨٣]، فرد بهذه الآية على من أنكر البعث بثلاثة براهين عقلية :

الأول : الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾، **الثاني :** الاستدلال بإخراج النار من الشجر الأخضر مع أنه أكثر بالضدية لأن الشجر إنما يكون أخضر إذا كان مليئاً بالماء، فمن قدر على إخراج النار من هذا الشجر الميت المليء بالماء قادر على إحياء الأموات من قبورهم، قال تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾، **الثالث :** الاستدلال بخلق السموات والأرض

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي (١٩٦)، مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٣ / ٢٩٨)، محاسن التأويل، القاسمي (٦ / ٥٤) .

على خلق الإنسان، ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١] .

خامساً : الاستدلال بالحكمة من خلق السموات والأرض، فإن الله تعالى لم يخلق الناس عبثًا، ولن يتركهم سدى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون : ١١٥ – ١١٦]، فهل يظن عاقل أن يترك الإنسان في هذه الدنيا لا يؤمر ولا يُنهى، ويترك في قبره سدى دون أن يبعث ؟ إن ذلك لا يليق بحكمة الله تعالى، فكل شيء يصدر عنه سبحانه له حكمة تقتضيه[٢]، ولذلك نبه سبحانه العباد إلى الحكمة والمقصد من خلق السموات والأرض، وأنه لم يخلقهما باطلًا، فقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥]، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية : (ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق، أي : ليدل بذلك على أنه المستحق لأن يعبد وحده، وأنه يكلف الخلق ويجازيهم على أعمالهم، فدلت الآية على أنه لم يخلق عبثًا، ولا لعبًا، ولا باطلاً)[٣]، وقال أبو الحسن الأشعري رحمه الله في قوله تعالى :﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ﴾ [ص : ٢٧] : (أراد بذلك المشركين الذين قالوا : لا حشر ولا نشور ولا إعادة، فكأنه

---

(١) الإيمان باليوم الآخر، المطيري (١٨٠ – ١٨١) .

(٢) زاد المعاد، ابن القيم (٣ / ٢٣٠)، فتح القدير، الشوكاني (٥ / ٣٤٢) .

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي (٢ / ٣١٢)

قال تعالى : ما خلقت ذلك، وأنا لا أثيب من أطاعني، ولا أعاقب من عصاني، كما ظن الكافرون أنه لا حشر ولا نشر، ولا ثواب ولا عقاب، ألا تراه قال : ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص : ٢٧])[١].

سادساً : ضرب الأمثلة على وقوع البعث بعدة آيات كونية متكررة في حياة الناس يشاهدونها ويتعايشون معها، ومن ذلك التمثيل بغروب الشمس وشروقها، وبتعاقب الليل والنهار، والتمثيل باليقظة بعد المنام، يقول الطاهر بن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المعارج : ٤٠]: (وفي إيثار المشارق والمغارب بالقسم بربها رعيٌ لمناسبة طلوع الشمس بعد غروبها، لتمثيل الإحياء بعد الموت) [٢]، ويقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [النمل : ٨٦] : (وفيها تذكير بتمثيل الموت والحياة بعده بسكون الليل وانبثاق النهار عقبه) [٣]، ويقول الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الزمر : ٤٢]: (وظاهرة اليقظة بعد المنام، وهي من أخص أحوال الإنسان وأكثرها تواردا عليه، إذ تماثل هذه الظاهرة الكونية

---

(١) الإبانة، الأشعري (١٩٠) .

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٩ / ١٧٩) .

(٣) المصدر السابق (٢٠ / ٤٣) .

قضية البعث مماثلة شديدة، ولذلك أُطلق على النوم اسم الوفاة الصغرى في إزاء الوفاة الكبرى الذي هو الموت) [١] .

**

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٧ / ١٠١) .

المبحث الثاني

فوائد منهج القرآن الكريم

في عرضه المقاصد العقدية للآيات الكونية

لمنهج القرآن الكريم في عرضه المقاصد العقدية التي اشتملت عليها الآيات الكونية من إثبات وجود الله عز وجل وربوبيته واستحقاقه للعبادة، وإثبات أسماء الله تعالى وصفاته، وبطلان الشرك وفساده، وإثبات البعث واليوم الآخر، فوائد كثيرة منها :

١- أن نصوص الشرع قد أرشدت إلى الاستدلال بهذا المنهج، فالشرع يهدي للتي هي أقوم، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩]، فيأمر بالإيمان بالله ورسله وتقواه، ويذكر من طرق العلم الإلهي ما هو أقوى وأقرب وأنفع[١] .

٢- أنه مناسب لأفهام عامة الناس، لأن المطالب الكلية لابد أن تكون أدلتها ملائمة للمكلفين، فيشتركون في فهمها وإن تفاضلوا في تصور أبعادها، وإدراك تفاصيلها بحسب إيمانهم وعلومهم وصبرهم على النظر في مدارك الأدلة [٢]، فالقرآن الكريم يخاطب جميع الناس بحسب طبائعهم الفطرية وميولهم واستعداداتهم، ولذلك كان منهج القرآن أقوى حجة وأشد إقناعًا من أي منهج

---

(١) انظر : مباحث الربوبية والقدر، د.عيسى السعدي (٣٤) .

(٢) درء التعارض، ابن تيمية (٧ / ٣٥٢، ٨ / ٢١ – ٩١ – ٩٢ – ٣١٣ – ٣١٤)، ابن تيمية السلفي، الهراس (٧٤ – ٧٥)، يسر العقيدة، المعلمي (٥٠) .

بشري، لأن القرآن لا يعبر عن نفسية بشرية ولا يمثل اتجاهًا بشريًّا معينًا ولا هو متأثر بمؤثرات زمنية عارضة .

٣- أنه موافق للفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهو الاعتراف بوجود خالق لهذا الكون، وهو الأمر الذي لا يستطيع أكبر ملاحدة العالم من الانفكاك عنه أو جحوده، وقد بين الله عز وجل أن فرعون كان مقرًا به، مع إنكاره لله تعالى في الظاهر، قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤].

٤- أنه أقوى في إقامة الحجة على الملحدين والكفار، لأن الآيات الكونية مشاهدة والكل يدركها، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : ٣ – ٤]، وهي مما تشترك في الإخبار به الكتب السماوية التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله، ولو دخلها التحريف بعد ذلك .

٥- أن هذا المنهج لا يدل على وجود الخالق فحسب، ولكنه يدل على معاني تجمع هذا المعنى وغيره من صفات الكمال، مثل كونه قيوما، وكونه صمداً غنياً عن كل ما سواه وكل ما سواه مفتقرٌ إليه، ولهذا أطلقت الدلالة ولم تقيد بمطلوب معين، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية :

٣- ٥]، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : (تأمل وجه كونها آية، وعلى ماذا جُعلت آية، أعلى مطلوب واحد، أم مطالب متعددة، وكذلك سائر ما في القرآن من هذا النمط)[١]، فكلها تدل على مطالب متعددة تفيد العلم بالخالق علماً تفصيلياً، يورث أهله محبة الخالق وعبادته[٢].

٦- أن الآيات الكونية قد دلت على استحقاق الله عز وجل للألوهية والوحدانية من جهتين:

أولاً : من جهة دلالتها على عظمة الله جل وعلا، وإثبات صفاته الكريمة الدالة على ذلك كالقدرة والحكمة والعلم والقهر وغيرها من الصفات .

ثانياً : من جهة دلالتها على انتفاء الألوهية عن بعض الكائنات التي اتُخذت معبودات من دون الله عز وجل[٣] .

٧- الإقناع للوصول إلى الحق الذي هو التوحيد ونبذ الباطل الذي هو الشرك، وذلك بذكر بعض الآيات الكونية، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

---

١ – بدائع الفوائد، ابن القيم (٤ / ١٦٣)، شرح الأصبهانية، ابن تيمية (٦١ – ٦٢)، يسر العقيدة، المعلمي (٧٥) .

٢ – درء التعارض، ابن تيمية (٣ / ٣٠٨) .

٣ – انظر : دلالات الآيات الكونية من خلال تفسير ابن عاشور، عبدالناصر سلامة (١٧٩) .

[العنكبوت: ٦٣]، وقال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٧] (١).

٨- أن الآيات الكونية التي ذكرها الله عز وجل في القرآن الكريم لتكون مضرب المثل على وقوع البعث وتحقق وقوعه، اشتملت على ميزتين :

أولاً : قوة شبهها بحالة البعث، مثل التمثيل باليقظة بعد النوم، وإنبات النبات في الأرض بعد أن كانت قاحلة بإنزال المطر، وغروب الشمس وشروقها، وتعاقب الليل والنهار .

ثانياً : شدة ملازمتها لحياة الإنسان بحيث لا يحتاج النظر والتأمل فيها إلى بحث وتكلف، سوى استحضار القلب عند مشاهدتها أو التلبس بها (٢)، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧]، فمن مميزات التمثيل القرآني أنه يراعي معرفة المخاطب بالممثل به معرفةً يحصل من خلالها المقصد من ضرب المثل، وهو تقريب المعنى إلى الذهن وإزالة الغرابة عنه، ولذلك قيل للحسن البصري رحمه الله: (الفيل أعظم في الأعجوبة من الإبل !) يقصدون قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية : ١٨]، فقال : (العرب بعيدة العهد بالفيل)(٣) .

---

(١) انظر : الآيات الكونية دراسة عقدية، د.عبدالمجيد الوعلان (٦٠) .

(٢) انظر : دلالات الآيات الكونية من خلال تفسير ابن عاشور، عبدالناصر سلامة (١٩١ – ١٩٢) .

(٣) الجامع لأحكام القران، القرطبي (٢٢ / ٢٥١) .

٩- بيان عبودية جميع الكائنات لله تعالى بما في ذلك الآيات الكونية، فلا يستوحش السائر إلى الله قلة السالكين على الطريق فإن جميع المخلوقات السماوية والأرضية تسجد وتسبح لله عز وجل إلا من حق عليه العذاب[١]، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج : ١٨] .

١٠- أن الآيات الكونية تلفت الأنظار وتخطف الأبصار ببيان آثار صفات الله وأفعاله وبآثار ربوبية الله عز وجل وكمال صفاته من الإحياء والإماته، والرزق وخلق السموات والأرض والنبات، وإنزال المطر من السحب، وتعاقب الليل والنهار[٢]، للقيام بحق ربوبية الله وألوهيته، فلا يُقصد في الحوائج غيره، ولا يتوكل على سواه، ولا يُستعان إلا به، قال ابن تيمية رحمه الله : (فإذا عرف العبد أن الله ربه وخالقه وأنه مفتقر إليه محتاج إليه عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله وهذا العبد يسأل ربه ويتضرع إليه ويتوكل عليه)[٣] .

١١- أن من المقاصد المهمة التي اقترنت بذكر الآيات الكونية في القرآن الكريم سوقها للدلالة بها على إنعام الله على عباده وتذكير الناس بذلك، وغالباً ما يأتي هذا الغرض مدمجاً مع مقصد الدلالة على وحدانية الله عز وجل، ومقصد الدلالة على وقوع البعث، والحكمة في ذلك تتجلى في ثلاثة أمور :

---

(١) انظر : الآيات الكونية دراسة عقدية، د.عبدالمجيد الوعلان (٦٢) .

(٢) انظر : بيان تلبيس الجهمية، ابن تيمية (١ / ١٨٠ – ١٨١) .

(٣) العبودية، ابن تيمية (٥٢) .

أولاً : الجمع بين خطاب العقل والوجدان، فإذا كان ما ذكر في مقصد الدلالة على وحدانية الله ووقوع البعث، من دلالات ومعان متعلقة بالآيات الكونية قد جاء خطاباً للعقل قد قُصد به إقامة الحجة على المعاندين في الوحدانية والبعث، فإن هذا المقصد بما فيه من تذكير بأثر نعم الله عليهم في تيسير أمور حياتهم مشتمل على خطاب لهم من جهة العاطفة والوجدان، وذلك بقصد تحريك قلوبهم وكسر شوكة العناد فيهم، كما قال تعالى :﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾ [النبأ : ٦]، فالغرض من الامتنان هنا تذكيرهم بفضل الله لعلهم أن يكفوا عن المكابرة ويُقبلوا على النظر فيما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم تبليغا عن الله عز وجل[١] .

ثانياً : التنبيه على بطلان عبادتهم للأصنام من جهة أن العبادة شكر، والشكر يستحقه من يخلق ويُنعم لا من لا يخلق ولا يُنعم، فلا يستقيم أن يقروا لله بالربوبية ثم يعبدوا غيره .

ثالثاً : المبالغة في التشنيع على من استمر من الكافرين في عناده وشركه بأنه مرتكبٌ لجريمتين عظيمتين، مخالفة الحق، وكفران النعمة[٢] .

١٢– أن من فوائد منهج القرآن الكريم في ذكر الآيات الكونية، الاعتبار والانتفاع بها، قال تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : ٦٥]، أي يفهمون ما خلقوا من أجله، ويفقهون الحقائق الشرعية،

---

(١) انظر : التحرير والتنوير، ابن عاشور (٣٠ / ١٤) .

(٢) انظر : دلالات الآيات الكونية من خلال تفسير ابن عاشور، عبدالناصر سلامة (١٩١ – ١٩٢) .

والمطالب الإلهية، ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه[1]، فقراءة الآيات التي تتحدث عن إثبات ربوبية الله وألوهيته، وتؤيد ذلك بالأدلة العقلية، وتؤكده بسرد الآيات الكونية مما يزيد الثبات والإيمان، ويدفع الوساوس والشكوك والأوهام، ولذلك يرشد الله تعالى إلى الاعتبار بما في الآفاق والأنفس من الآيات المشاهدة، كخلق السموات والأرض وما فيهما، وأن كل ذلك دالٌ على حدوثها، وعلى وجود خالقها وحكمته[2]، قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور : ٣٥]، فلما سمع هذه الآية جبير بن مطعم رضي الله عنه قبل إسلامه وما تضمنته من بليغ الحجة، قال : كاد قلبي أن يطير[3]، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبه رضي الله عنه [4]، فالنظر إلى الآيات الكونية والاعتبار بحكمة الله تعالى في خلقها، دليل ينتفع به أهل العقول، ولما عقل أهل الإيمان هذه الآيات حصل لهم الاعتبار والانتفاع فزاد إيمانهم وتعلقهم بربهم فحصلت لهم الهداية .

١٣- بيان تفرد الله عز وجل بخلق هذه الآيات الكونية وحكمته وتصرفه فيها، فلله ملك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، يتصرف فيهما بما شاء من التصاريف القدرية والشرعية، والمغفرة والعقوبة، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته

---

(١) انظر : تفسير الطبري (٧ / ٢٥٥ – ٢٢٩)، و تفسير ابن كثير (٢ / ١٤٨)، وتفسير السعدي (٢ / ٤٨١) .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٣ / ٣٣١ – ٣٣٢)، وتفسير ابن كثير (٣ / ٤١٩)، الآيات الكونية دراسة عقدية، د.عبدالمجيد الوعلان (٦٤) .

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الطور، حديث رقم : (٤٨٥٤) .

(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً، حديث رقم : (٤٠٢٣) .

الواسعة ومغفرته [١]، قال ابن سعدي رحمه الله في الطرق الكلية إلى العلم بأنه لا إله إلا الله : (الثامن : ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعه، وبديع حكمته، وغرائب خلقه)[٢] .

١٤– تصديق خبر الأنبياء بحصول بعض الآيات الكونية، فعن عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشقين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اشهدوا)، وفي حديث أنس رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر[٣]، ولذلك ترى المشركين يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم تصديق خبره ببعض الآيات الكونية، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [العنكبوت : ٥٠]، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير الآية : (وقالت المشركون من قريش : هلا أنزل على محمد آية من ربه، تكون حجة لله علينا، كما جعلت الناقة لصالح، والمائدة لعيسى ؟ قل يامحمد : إنما الآيات عند الله، لا يقدر على الإتيان بها غيره، (وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)، وإنما أنا نذير لكم، أنذركم بأس الله وعقابه على كفركم برسوله، وما جاءكم به من عند ربكم (مُّبِينٌ)، يقول : قد

---

(١) انظر : تفسير البغوي (٣ / ٢٥٤ – ٢٥٥)، وتفسير ابن كثير (٣ / ٢٦٣ – ٢٦٤)، وتفسير السعدي (١ / ١٤٨) .

(٢) تفسير السعدي (٤ / ١٦٥٨) .

(٣) صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر (٤ / ٢١٥٨ – ٢١٥٩) .

أبان لكم إنذاره)[1]، ثم إن الله لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم، لأن ذلك سهل عليه، يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك [2]، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

١٥- تثبيت عقيدة المؤمن فإن إجابة الله عز وجل لسؤال أوليائه عن طلبهم بعض الآيات الكونية، مما يثبت العقيدة ويزيد الإيمان واليقين، وقد سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يريه آية من آياته الكونية، يريد أن يطمئن قلبه بها، كما أخبر الله عنه : قال تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [البقرة : ٢٦٠]، فالمسألة من قبل إبراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة الشك، لكن من قبل زيادة العلم، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال، وتوارد الأدلة اليقينة مما يزداد به الإيمان ويكمل به اليقين[3] .

**

(١) تفسير الطبري (٢١ / ١١) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٣ / ٣٢٨)، الآيات الكونية دراسة عقدية، د.عبدالمجيد الوعلان (٦٠) .

(٣) انظر : شرح السنة، البغوي (١ / ١١٤ – ١١٥)، تفسير ابن سعدي (٤ / ٢٠١٧)، الآيات الكونية دراسة عقدية، د.عبدالمجيد الوعلان (٦٢ – ٦٣) .

الخاتمــة

في ختام هذا البحث، اشكر الله عز وجل على تيسيره وتوفيقه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وقد توصلت من خلاله إلى النتائج الآتية :

١- أن علم المقاصد من أشرف العلوم وأجلها فهو ميدان المجتهدين، وفيه يجتمع العقل والنقل، ومن ذلك المقاصد العقدية في ذكر الآيات الكونية في القرآن الكريم .

٢- أن القرآن الكريم اشتمل على ذكر عدد كبير من الآيات الكونية في المخلوقات السماوية والأرضية وذكر صفاتها وأنواعها، وبين المقاصد الكلية والحكم العقدية العامة من ورودها .

٣- يظهر لنا من خلال هذا البحث أن من أهم المقاصد العقدية في ذكر الآيات الكونية في القرآن الكريم، الاستدلال بها على وجود الله تعالى وربوبيته واستحقاقه للعباده، وتقرير أسمائه وصفاته، وإثبات النبوة وصدق الأنبياء عليهم السلام، وبيان بطلان الشرك، وإثبات البعث واليوم الآخر .

٤- أن منهج القرآن الكريم من أفضل المناهج وأحسنها في تقرير مسائل العقيدة، لمخاطبته عامة الناس ولموافقته للفطرة البشرية، ولاشتماله على معاني جليلة وحكم كثيرة .

**

المصادر والمراجع

١- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة – العكبري – تحقيق : رضا مصطفى وآخرون – دار الراية – الرياض – ١٤١٥هـ

٢- ابن تيمية السلفي ونقده لمسالك المتكلمين في الإلهيات – د.محمد الهراس – دار الكتب العلمية – بيروت – ط (١) .

٣- الإحكام في أصول الأحكام – الآمدي – تحقيق : عبدالرزاق عفيفي – المكتب الإسلامي – بيروت – بدون طبعة .

٤- الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد – د.سعود العريفي – دار عالم الفوائد – جدة – ط (١) .

٥- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت – ط – ١٤١٥هـ.

٦- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د.زاهر محمد الشهري، دار طيبة الخضراء – مكة المكرمة – ط (١) – ١٤٤٠هـ.

٧- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة – د.عبدالله المصلح – دار جياد – جدة – ط (١) – ١٤٢٩هـ.

٨- إعلام الموقعين عن رب العالمين – ابن القيم الجوزية – تحقيق : مشهور آل سلمان – دار ابن الجوزي – الدمام – ط (٢) – ١٤٣٣هـ.

٩- الآيات الكونية دراسة عقدية – د.عبدالمجيد بن محمد الوعلان – جامعة الامام – الرياض – ١٤٣٢هـ.

١٠- إيثار الحق على الخلق – ابن الوزير – دار الكتب العلمية – ط (١).

١١- ايسر التفاسير لكلام العلي الكبير – الجزائري – مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة – ط (٥) – ١٤٢٤هـ.

١٢- الإيمان – ابن منده – تحقيق : د.علي محمد الفقيهي – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط (٢)- ١٤١٦هـ.

١٣- بدائع الفوائد – ابن القيم الجوزية – دار الكتاب العربي – الطباعة المنيرية.

١٤- البرهان في علوم القرآن – الزركشي – تحقيق : د.يوسف الرعشلي – دار المعرفة – بيروت – ط (٢) – ١٤١٥هـ.

١٥- بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز – الفيروزبادي – تحقيق : محمد النجار – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – القاهرة .

١٦- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية – ابن تيمية – تحقيق : مجموعة من المحقيقين – مجمع الملك فهد لطباعة المصحف – المدينة – ط (١) – ١٤٢٦هـ.

١٧- تاج العروس من جواهر القاموس – الزبيدي – مجموعة من المحققين – دار الهداية – ١٩٦٥م.

١٨- التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن عاشور – الدار التونسية – تونس – ط ١٩٨٤م.

١٩- التسهيل لعلوم التنزيل – أبو القاسم – تحقيق : د.عبدالله الخالدي – شركة دار الأرقم ابن أبي الأرقم – بيروت – ط (١) – ١٤١٦هـ.

٢٠- تفسير البغوي – دار المعرفة – بيروت – ط (٢) .

٢١- التفسير الثمين – ابن عثيمين – اعتنى به : أشرف كمال – مكتبة الطبري – مصر – ط (١) – ١٤٣٠هـ.

٢٢- تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – تحقيق : سامي سلامة – دار طيبة – الرياض – ط (٢) – ١٤٢٠هـ.

٢٣- التفسير الكبير – الرازي – دار إحياء التراث – بيروت – ط(٣)- ١٤٢٠هـ.

٢٤- تيسير الكريم المنان – السعدي – تحقيق : عبدالرحمن اللويحق – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط (١) – ١٤٢٠هـ.
٢٥- تهذيب اللغة – أبو منصور الأزهري – تحقيق : محمد عوض – دار احياء التراث العربي – بيروت – ط (١) – ٢٠٠١م.
٢٦- جامع البيان في تأويل آي القرآن – محمد بن جرير الطبري – تحقيق : د.عبدالمحسن التركي – دار هجر – ط (١) – ١٤٢٢هـ.
٢٧- الجامع الصحيح – البخاري – بيت الأفكار الدولية – الرياض – ١٤١٩هـ.
٢٨- الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – تحقيق : أحمد البردوني – دار الكتب العصرية – القاهرة – ط (٢) – ١٣٤٨هـ.
٢٩- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح – ابن تيمية – تحقيق : د.علي حسن ورفاقه – دار الغاصمة – الرياض – ط(٢) – ١٤١٩هـ
٣٠- الجواب الكافي – ابن القيم – تحقيق : محمد الاصلاحي – عالم الفوائد – مكة المكرمة – ط (١) – ١٤٢٩هـ.
٣١- خلاصات في مباحث النبوات – د.عيسى السعدي – دار الأوراق – جدة – ط (٤) – ١٤٤١هـ.
٣٢- درء تعارض العقل والنقل – ابن تيمية – تحقيق : محمد رشاد سالم – مطابع جامعة الإمام – الرياض – ط (١) – ١٣٩٩هـ.
٣٣- دراسات في علوم القرآن – أ.د.فهد عبدالرحمن الرومي – ط (١٢) – ١٤٢٤هـ.
٣٤- دلالات الآيات الكونية من خلال تفسير ابن عاشور – عبدالناصر سلامة – مجلة تدبر – العدد الثالث عشر – المدينة المنورة – محرم ١٤٤٤هـ.
٣٥- الروح – ابن القيم – دار عالم الفوائد – جدة – ط (٢) .

٣٦– زاد المعاد في هدي خير العباد – ابن القيم الجوزية – تحقيق : شعيب الأرنؤط – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط (٢٧)– ١٤١٤هـ.

٣٧– السنة – ابن أبي عاصم – تخريج : الألباني – المكتب الإسلامي – بيروت – ط (١) – ١٤٠٨هـ.

٣٨– شرح الأشموني على ألفية مالك – على محمد الأشموني – ضبطه : علي شمس الدين – دار الكتب العلمية – بيروت – ط (١) – ١٤١٧هـ.

٣٩– شرح السنة – البغوي – المكتب الإسلامي – بيروت – ط (٢) – ١٤٠٣هـ.

٤٠– شرح العقيدة الأصفهانية – ابن تيمية – تحقيق : محمد الأحمد – المكتبة العصرية – بيروت – ط (١) – ١٤٢٥هـ.

٤١– شرح العقيدة الطحاوية – ابن أبي العز الحنفي – تخريج : الالباني – المكتب الإسلامي – بيروت – ط (٩).

٤٢– شفاء العليل – ابن القيم الجوزية – دار الكتب العلمية – بيروت – ط (١).

٤٣– شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل – الغزالي – تحقيق : احمد الكبيسي – مطبعة رشاد – بغداد – ١٣٩٠هـ.

٤٤– صحيح مسلم – الإمام مسلم – بيت الأفكار الدولية – الرياض – ١٤١٩هـ.

٤٥– الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة – ابن القيم الجوزية – تحقيق : علي محمد الدخيل الله – دار العاصمة – الرياض – ط (١) – ١٤٠٨هـ.

٤٦– طريق الهجرتين وباب السعادتين – ابن القيم الجوزية – تحقيق : محب الدين الخطيب – المكتبة السلفية – ط (٣).

٤٧- العبودية – ابن تيمية – تحقيق : محمد زهير الشاويش – المكتب الإسلامي – بيروت – ط (٧) – ١٤٢٧هـ.
٤٨- علم مقاصد الشريعة – د.نور الدين مختار الخادمي – مكتبة العبيكان – الرياض – ط (١) – ١٤٢٧هـ.
٤٩- فتح الباري شرح صحيح البخاري – ابن حجر العسقلاني – تصحيح : ابن باز – دار المعرفة – بيروت – ١٣٧٩هـ.
٥٠- فتح القدير – الشوكاني – دار الفكر – بيروت – بدون طبعة.
٥١- الفصل في الملل والأهواء والنحل – ابن حزم – تحقيق : د.محمد إبراهيم نصر – شركة مكتبات عكاظ – السعودية – ط (١) – ١٤٠٢هـ.
٥٢- الفوائد – ابن القيم الجوزية – دار الكتب العلمية – بيروت – ط (٢) – ١٣٩٣هـ.
٥٣- القاموس المحيط – الفيروزآبادي – إشراف : محمد نعيم – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط (٢) – ١٤١٥هـ.
٥٤- القرآن والكون – د.محمد عبدالله الشرقاوي – دار الجيل – بيروت – ط (٣) – ١٤١١هـ.
٥٥- قواعد الأحكام في مصالح الأنام – العز بن عبدالسلام – تحقيق : د.نزيه حماد – دار القلم – دمشق – ١٤٢١هـ.
٥٦- لسان العرب – ابن منظور – دار صادر – بيروت – ط (٣) – ١٤١٤هـ.
٥٧- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية – محمد أحمد السفاريني – المكتب الإسلامي – بيروت – ط (٣) – ١٤١١هـ.

٥٨– مباحث الربوبية والقدر – د.عيسى السعدي – دار الأوراق – جدة – ط (١) – ١٤٤١هـ.

٥٩– مجموع الفتاوى – ابن تيمية – جمع : عبدالرحمن قاسم – مطبعة المساحة العسكرية – القاهرة – ١٤٠٤هـ.

٦٠– مجموع فتاوى العقيدة – ابن عثيمين – جمع وترتيب : فهد السليمان – دار الوطن – الرياض – ١٤١٣هـ.

٦١– محاسن التأويل – القاسمي – تحقيق : محمد باسل – دار الكتب العلمية – بيروت – ط (١) – ١٤١٨هـ.

٦٢– مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة – ابن القيم الجوزية – تحقيق : سيد ابراهيم – دار الحديث – القاهرة – ط (١) – ١٤٢٢هـ.

٦٣– المستصفى – أبي حامد الغزالي – تحقيق : محمد عبدالسلام – دار الكتب العلمية – بيروت – ط (١) – ١٤١٣هـ.

٦٤– مسند الإمام أحمد – تحقيق : أحمد شاكر – دار الحديث – القاهرة – ط (١) – ١٤١٦هـ.

٦٥– المصباح المنير – الفيومي – المكتبة العصرية – بيروت – ط (١) – ١٤١٩هـ.

٦٦– معجم اللغة العربية المعاصرة – د. أحمد مختار – عالم الكتب – ط (١) – ١٤٢٩هـ.

٦٧– المعجم الوجيز – إصدار مجمع اللغة العربية – القاهرة – ١٤٢٠هـ.

٦٨– المعجم الوسيط – منشورات مجمع اللغة العربية – اعتنى به : إبراهيم مصطفى – مطبعة دار المعارف – مصر – ط (٢) – ١٣٩٢هـ.

٦٩- معجم مقايس اللغة – أحمد بن فارس – تحقيق : عبدالسلام هارون – دار الفكر – طبعة : (١٣٩٩هـ).
٧٠- مفاتيح التفسير – د. أحمد سعد الخطيب – دار التدمرية – الرياض – ط (١) – ١٤٣١هـ.
٧١- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة – ابن القيم الجوزية – اعتنى به : علي الحلبي – دار ابن عفان – الخبر – ط (١)- ١٤١٦هـ.
٧٢- المفردات في غريب القرآن – الراغب الأصفهاني – دار المعرفة – بيروت .
٧٣- مقاصد الشريعة – ابن عاشور – تحقيق : محمد الطاهر – دار النفائس – الأردن – ط (٢) – ١٤٢١هـ.
٧٤- مقاصد الشريعة الإسلامية – د.زياد محمد أحميدان – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط (١) – ١٤٢٩هـ.
٧٥- مقاصد الشريعة عند ابن تيمية – د.يوسف أحمد البدوي – دار الصميعي – الرياض – ط (٢) – ١٤٣٣هـ.
٧٦- المقاصد العامة للشريعة الإسلامية – د.يوسف حامد العالم – إصدار المعهد العالي للفكر الإسلامي بأمريكا – دار الأمان – الرباط – ط(٢) – ١٤١٤هـ.
٧٧- مناهل العرفان في علوم القرآن – محمد الزرقاني – تحقيق : فواز زمرلي – دار الكتاب العربي – بيروت – ط (١) – ١٤١٥هـ.
٧٨- منهاج السنة – ابن تيمية – تحقيق : محمد رشاد سالم – ط (١) – ١٤٠٦هـ.
٧٩- الموافقات – الشاطبي – اعتنى به : مشهور حسن – الخبر – ط (١) – ١٤٠٧هـ.

٨٠– الموسوعة العربية العالمية – مجموعة من العلماء والباحثين – نشر : مؤسسة أعمال الموسوعة – الرياض – ط (٢) – ١٤١٩هـ.

٨١– الموسوعة الفلكية الحديثة – عمار مجاهد – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – ط (١) – ٢٠٠٢م .

٨٢– النبوات – ابن تيمية – تحقيق : د.عبدالعزيز الطويان – دار أضواء السلف – الرياض – ط (١) – ١٤٢٠هـ.

٨٣– نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي – د.حسين حامد حسان – دار النهضة العربية – القاهرة – ١٩٧١م.

٨٤– نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – البقاعي – دار الكتاب الإسلامي – القاهرة.

٨٥– يسر العقيدة الإسلامية – عبدالرحمن المعلمي – دار عالم الفوائد – ط (١)

٨٦– اليوم الآخر – د.محمد إبراهيم الحمد – دار ابن خزيمة – الرياض – ط (٢) – ١٤٣٢هـ.

٨٧– اليوم الآخر في القرآن العظيم والسنة المطهرة – د.عبدالمحسن المطيري – دار البشائر الإسلامية – بيروت – ط (٢) – ١٤٢٧هـ .

* * *